قطعة ليل

قطعة ليل
(قصص قصيرة)

أحمد الخميسي

الطبعة الأولى، 2003

رقم الإيداع: /**2003**

الترقيم الدولى:

أحمد الخميسي

قطعة ليل

قصص قصيرة

إلى المستقبل الذي لا يأتي أبداً.

أحمد الخميسى

وقتٌ آخر

مع الدوران المنتظم لأضلاع المروحة المدلاة من السقف كان الهواء يرف فوق الجالسين إلي طاولة الطعام بفسحة شقة من الطابق الثالث بالمنزل 22 شارع حبشي بحدائق القبة ، عندما ، جاش صدر ياسر وجدي بانفعال شديد وأطبق شفتيه بصمت على قلبه ، ثم شملته رعدة على الكرسي ارتجف لها جسمه كله بشدة ، مرة ، ومرة ثانية . وفتح الجميع عيونهم إلى آخرها منتفضين من مقاعدهم يتابعون بنظرات الدهشة جسمه المضطرب وهو يهوي متخبطا إلي الأرض .

تطلعت أم نوال إليه بنظرة تجمدت من ذعر أبكم ، ولحقها يحيى مبهوتا بعينين بيضاوين من الذهول .

لكن القصة بدأت قبل ذلك حينما كان ياسر وجدي في طريقه لبلدته كفر عبده منذ أسبوعين فتفتحت فيه دهشة تسربت

إليه طويلا ، لأن البلدة كانت تقطر بسمرة المغيب ، ذات السمرة متى زارها صباحا أو ظهرا أو ليلا – كأنها لم تعد تعرف وقتا آخر سوى لحظة المغيب ، ولأنه وهو يقطع الطريق بمحاذاة الترعة صوب الدار كان يلتقي بفوزي كل مرة بقامته الطويلة المسحوبة ومشيته المسالمة ومن ورائه جاموسة ترفع نحوه عينين واسعتين معذبتين بصبر راضخ رقيق ، وما يلبث بعد ذلك مباشرة أن يصادف الشيخ حمدي مهرولا كل مرة في الاتجاه الآخر نحو الجميزة الضخمة التي تحتضن المسجد ، فيلقي الشيخ السلام دون أن يتطلع إليه . في تلك المرة ، كما في المرات السابقة ، لمح ياسر نعمات – وهو يدور يمينا مع الطريق الضيق المترب – منحنية تضخ الماء دائما من طلمبة الحوش في نفس الدورق النحاسي . ترفع رأسها لحظة ، تبتسم له كل مرة ذات البسمة الملغزة المفعمة بالدفء ، وتنحني ثانية على الطلمبة .

سيمشي قليلا بعد ذلك فلا يصادف أحدا إلي أن يهف عليه نفس المزيج الأسطوري من مخاض الطين وأسرار اللقاح الهائمة في الجو، فيواصل سيره وحده بين الأرض والسماء

حتى ليشعر كأنه ظل لحقيقة أخرى سرعان ما يزول . ينبح كلب بعيدا ، مرة ، وأخرى ، ثم يرقد ضجرا تحت شجرة في سكون المغربية . في هذه اللحظة سيجد نفسه كما في المرات السابقة واقفا أمام الباب الخشبي القديم لدارهم ويتريث ثوان قبل أن يدلف :

الآن سوف يستقبله والده الحاج عفيفي كما لاقاه مرات متتالية من قبل دون أن يبدل شيئا من جلسته أو حديثه أو إشارات يديه في الهواء ، متربعا بنفس الجلباب على نفس الكنبة تتوالى كلماته بنفس التتابع عن الشوطة التي التهمت نصف فراخ المزرعة . وحين ينتهي من شكواه سيلتفت لعمق الدار ويصيح متعجلاً العشاء بنفس التعبير الملول . حينئذ سينهض هو لينصرف مستأذنا مستغربا كل ذلك .

هذه المرة غابت عيناه في الباب الخشبي العتيق ثم استدار عائدا على نفس الطريق إلي مخارج البلدة ، ومنها إلي موقف الميكروباص على سكة السفر ، وقد قرر ألا يرجع للبلدة ثانية قبل أن يفض سر ما يتراءى له من صور تتناسل وتعيد خلق نفسها . استغرقه ذلك الخاطر في فترات الراحة التي تتخلل

عمله بإدارة المبعوثين ، وأثناء جلسته أمام التلفزيون بشقته وخلال أحاديثه مع زوجته نوال . وانتبهت نوال وهي تعقص شعرها أمام مرآة الحمام إلي أنه أمسى على غير عادته. تأملته باستغراب دون أن تعقب بشيء بينما كان ينزلق بجسمه إلي ماء الحمام الدافئ منصرفا إلي نفسه لعله يجد تفسيرا للقرية الناعسة التي تكرر نفسها بلا نهاية .

بعد أيام معدودة أفاق ياسر وهو في طريقه لعمله بمجمع التحرير إلي أن وجوه ركاب الأتوبيس " 44" لم تعد تتبدل صباحا بعد الآخر على مدى أسبوع كامل . لاحظ ذلك بتشكك أول الأمر، وخال أن شيئا قد اختلط عليه ، فحد من ذاكرته يحفظ ملامح الوجوه من حوله كل مرة إلي أن ارتسمت أمامه وهو مغمض العينين فتيقن أنها ذات الوجوه والعيون التي تعاود الظهور في نفس الأتوبيس اليوم التالي . ثم أعيته عند التفكير تفاصيل أكثر دقة كتلك المرأة التي تزاحمه كل يوم بين نفس المقعدين بلحمها المكتنز وفستانها الأخضر الفاقع .

ربما كانت الصدفة وحدها وراء كل ذلك . لكن أكانت مصادفة أيضا أن يبدأ عمله كل يوم باستدعاء المدير له ،

ودخوله إلي مكتب المدير فإذا بالرجل منتفخ في مقعده قابض على سماعة التليفون جازما بأن : " إدارتنا – أقسم بالله – في أمس الحاجة لخبرة رجال كهذا الرجل " . كم مرة تتابعت تلك الكلمات بنصها على أذنيه ما أن تبلغ قدماه منتصف السجادة؟ جرب ذات يوم أن يتلكأ عند استدعاء المدير له ، فتمشي ببطء في ردهات الطوابق التي عجت بضوضاء أصحاب المصالح ، ثم دلف إلى قسم الشئون المالية ، واتصل بنوال من مكتب عزت ، وعرج على دورة المياه ، وتوقف فيها دقائق أمام المرآة ، ثم قطع مسافة إلي فرع مكتب البريد بالطابق الرابع وظل به برهة ليكسب وقتا يغير به الموعد المتكرر ، وصعد بعد كل ذلك بتصميم إلي غرفة المدير ، لكن نفس العبارة بنفس النبرة دوت في أذنيه ما أن وطأت قدماه منتصف السجادة القديمة المنسولة .

وحدها كانت وجوه المترددين على المكاتب تتغير ، وتتجدد معها أمام عينيه الأوراق والملفات بأسماء المبعوثين لمنح دراسية في الخارج : ملف المطلوب وضعهم تحت الإشراف العلمي ، وملف الذين أنهوا دراستهم ، وملف مستحقات

الطلاب. كان يقبض على لحظات التغير تلك بكل قوته ويستعيدها إشارة إلي بقاء العقل . لكنه كان إذا نهض من وراء مكتبه ليدخن سيجارة ظهراً ، نهض معه على الفور زميله مصطفى سلامه وهو يغمز بعينه اليمنى مبتسما ، فينسلان من الغرفة واحدا وراء الآخر ويهبطان متجاورين إلي ممر الطابق السادس ويستندان بظهريهما إلي الجدار القريب من البوفيه . يقدم مصطفى سيجارة إليه شاكيا : " لو الواحد خبط رأسه في الحائط لكان ذلك شوية على ما يحدث. الهانم عارفة ظروفي كلها ، ولما شجعتني بعينيها وضحكاتها تقدمت إلي أهلها أطلب يدها . أتصدق أنهم أفحموني بالرفض القاطع ! أيعقل هذا ؟! ".

أسبوع كامل ، أم شهر ، ومصطفى يردد نفس الكلام على نفس البسطة بنفس البدلة الرمادية . لم يعد يحتمل فصاح فيه ساخطا بنظرة حانقة : " ما هذا ؟ أما من شيء آخر تقوله؟ " . تطلع مصطفى إليه متراجعا بارتباك وتلعثمَ : " شيء آخر ؟ شيء من أي نوع ؟ أنت تعرف المشكلة ، وتعلم أن الكثيرات يرفضن الزواج لمجرد أن والدتي تعيش معي بنفس الشقة . فهل ألقي بها إلي الشارع في هذه السن ؟! ". احتد عليه مستاء

وقد شاع في وجهه تكذيب مرير : " قلت لي كل ذلك وكررته بحذافيره من قبل أكثر من مرة". تركه وعاد إلي مكتبه مختنقا بخاطر كئيب:" لابد من طلب إجازة مرضية " .

تردد في طلب الإجازة ، ثم حسم أمره حين تذكر أنه عند رجوعه إلي البيت كان كل يوم يرتطم بقدمين ثابتتين في حذاء كاوتشوك أبيض لصبي لا يبدل موقعه قرب مدخل العمارة بوجه شارد في هواء الشارع . لم يكن يدري من أي بيت أو أسرة في الحي نجم له هذا الطارئ الشيطاني بوجهه الشارد . وتضاعف بين جوانحه إحساس يائس بأن وجوده أمسى وهو في السابعة والثلاثين دوران لا ينتهي في حلقة مفرغة. رأى نفسه وهو يكتب طلب الإجازة ، ورأى نفسه وهو يوقعه ، ثم شاهد كيف أنه مشى إلي غرفة المدير في غيابه ووضع الطلب على سطح مكتبه .

ودعه زملاؤه بحرارة وهم يشدون على يده متمنين له سرعة الشفاء ، ورافقه عزت ومصطفى إلي باب المصعد وهبطا معه حتى باب مجمع التحرير وهما يكرران على مسمعه: بسيطة بإذن الله .

لازم شقته في الطابق الثالث من المنزل 22 بشارع حبشي في حدائق القبة. ومر عليه يومان في بيته وهو راقد يتقلب في سريره أو ينظر إلي السقف ، ثم ينعس قليلا دون أن يكلم أحدا. لم يأكل شيئا ولا حلق ذقنه . قالت له نوال : " ليتك ترى وجهك في المرآة . أنت تضمر من لحظة لأخرى أمام عيني فاعرض نفسك على طبيب " . هل يصدق الأطباء ويكذب عقله الذي يعي وعينيه اللتين تريان ؟ وهل من دواء يطرد ما تثيره أحداث الأيام الأخيرة من شعور غريب بأنه يعيش حياة بالية من زمن سابق لرجل آخر استنفدها ثم خلعها لأول عابر طريق؟

مساء اليوم الثالث أصرت نوال على أن تشده إلي الحمام وهي تقول متفائلة : " أنا متأكدة أنك ستغدو كالحصان إذا قمت واستحممت وأكلت لقمة ونفضت عنك هذه الحالة . قم يا جدع". احتواها بين ذراعيه في الليل لكن بعنف غير مسبوق كأنما تاق إلي إحراق نفسه فيها ، وعندما ذوبه اللهب شدها إليه فارتدت على ظهرها فوق السرير وهي تلهث : " ياسر .. حبيبي " ، فجذبها ثانية بقوة ، فارتدت من جديد بنفس النبرة : "ياسر .. حبيبي" . كف عنها ، وغشت خياشيمه رائحة نفس العرق

الساخن التي فغمته مرارا من قبل. رفع رأسه وفرد جذعه معتمدا على ركبتيه المغروستين في السرير ، ومكث عارياً فوقها بين ظلال الغرفة المعتمة يسأل نفسه إن كان ما يدور حوله حقيقة أم موجا من الصور يظنها حقيقة ؟

وقف ساهما ببيجامته في المطبخ أمام إبريق الشاي الذي يصفر بخاره ، كان ينظر إلي الإبريق ولا يبصره حين فوجئ بنوال وقدعادت من شغلها دون أن يشعر بها تحملق فيه بذهول قائلة : " ألا تقل لي ما بك ؟ أم أنك لا تحس بنفسك ؟ دعنا نذهب إلي طبيب ربما تكون حالة نفسية ؟ " . تطلع إليها ببصر زائغ ثم أشاح بيده أن لا . أي طبيب يجد علة الشعور الذي يتخلله بأنه يذوي وحده مئات المرات في فضاء عريض أصم خال من كل شيء ؟

استفسر منها : " كيف حال الولد ؟ هل بدأ ينتظم في دراسة اللغة الإنجليزية ؟" تفرست فيه بغضب ثم غادرت المطبخ وهو يمشي خلفها إلى الشرفة . هناك غمغمت وهي تجمع بين يديها من الشمس طرفي ملاءة بيضاء : " كم أخشى عليه من الرسوب هذا العام " .

عصر اليوم التالي قال لها وهو راقد في فراشه بغرفة النوم: " دعيني أرى الولد الآن " . دخل عليه عزيز ابنه بعوده الناشئ ، وجثا على ركبتيه عند حافة السرير وطوق خصره بذراعه اليمنى مطأطئا: " سلامتك يا بابا " . مر بيده على رأس الولد : " لا تقلق . فقط أريدك أن تلتفت لدراستك هذه السنة".عندما خرج الولد من الغرفة استفهم : "هل يشكو منه المدرسون ؟ " . نهضت واقفة تقول له وهي تجمع بين يديها طرفي ملاءة بيضاء لتضعها في الخزانة : "كم أخشى عليه من الرسوب هذا العام " . تأملها مخاطبا نفسه : " ترى أتقول ذلك الآن ؟ " .

وحزَّ في نفسه أن نوال وهو بتلك الحالة كانت تقدم له ظهر كل يوم نفس صحن البامية وشوربة اللحم . قال لها : " أما من طعام آخر يا نوال ؟ " هرولت إلى المطبخ وعادت إليه تحمل بين يديها طبق الملوخية بالأرانب الذي أكل منه من قبل فصاح بها مستغربا : " هذا طعام بايت ! " . انصرفت . قام متجها إلى الصالة . رجعت إليه نوال بعد قليل وفرشت السفرة بأطباق الأرز والسمك المشوى بينما أقبل عزيز ابنه بصحن

سلطة خضراء ووضعه أمامه . حينئذ رأى ابن عمه وصديق عمره يحيى جالسا على المقعد المواجه له عند السفرة ، وقد فاض لحمه المتكتل على الكرسي وضحكته المجلجلة تملأ شدقيه . عن يمين يحيى جلس أبو نوال بملامحه التي تقطر طيبة وهو يهمس بشيء لأم نوال التي دقت على صدرها مستنكرة : " لا أبدا . بعد الشر . لا تقل هذا " .

تطلع إلى من حوله وما حوله ، واسترق النظر إلى التلفزيون: كانت كيتي تميل بخصرها في فيلم قديم معروف لاسماعيل يس ، بينما يهز يحيى رأسه طربا وعيناه تلمعان بنشوة وسرور. تعجب لكل ذلك وأحس أن شيئا خبطه على رأسه : كل ذلك لم يقع اليوم ، بل كان منذ زمن بعيد .. بعيد. خاطب نوال وهي تغترف الأرز من الحلة وتفرقه : " يا نوال .. ألم نشاهد نفس الفيلم من قبل ؟ " . وفكر: " ويحيى أيضا ؟ والساعة الثانية ظهرا ؟ والسمك المشوي ؟ والجو الحار ؟ ووالديك ؟ وستطرق أختك إحسان باب الشقة الآن فتقومين ، وتفتحين لها فتدخل وتجلس ثم تشكو أول ما تتكلم من صهد الشارع ؟ " . لكن نوال لم تسمعه ، أو تظاهرت بذلك .

ساد الصمت لحظة ، وما لبث أن سمع دقاً على باب الشقة. قامت نوال من مقعدها لتفتح الباب ، وإذا بإحسان واقفة في فتحة الباب كتمثال لآلهة الحسن ، كل ما فيها مشع آسر ، زاخرة بحياة كظيمة طفرت كأنما أهاجها وثاق لحمها وعظمها، فتطاير شررها متألقا من فحم عينين سوداوين ضاحكتين ، لولا قرط على شكل زهرة تأرجح في أذنيها ما قال أحد أنها من البشر الزائلين . دخلت وجلست تحت المروحة المدلاة من سقف الصالة وتنهدت قائلة : " يا إلهي ، الشارع نار ! " . كان موقنا أن يحيى سيرتد الآن .. الآن إلى الخلف بكتفيه العريضتين محدقا في طبق السمك وقد تحلب ريقه للأكل ، وسيرفع يده بالشوكة إلى أعلى ، لكنه قبل أن ينقض على الطعام سيهلل مثنيا على مهارة نوال : " الله . ولا طعام الملوك ! " . وخطر له ، ما أن ارتد يحيى بكتفيه أنه لا يستطيع أن يشكو ما به لأحد ، لأن أحدا لن يفهم ما به، وأن الأمل الأخير الضعيف أن يكون كل ذلك وعكة عابرة .

كان ينتظر أن تهتف إحسان بصوتها الرنان : " احتفل إبراهيم ونبيلة بسبوع ولي العهد " لكي تدنو منه نوال وتقف

بالقرب منه معتمدة بيدها اليسرى على حافة الكرسي وتمسح ظهره بيدها الأخرى في حنان .

ساد سكون تركزت فيه عيون الجميع عليه تنفث نحوه مودة صادقة يشوبها استفسار قلق ، بينما كانت كف نوال تمسح ظهره بمحبة وهي مستندة بيدها إلى حافة الكرسي .

أحس بعرقه ينضح فمد يده بمنديل إلى رقبته وجفف عرقه الذي جففه من قبل. تأمل صفحة وجه نوال بقسماته المستريحة وعينيها الصغيرتين الجميلتين وأنفها الدقيق . وقال لنفسه إنها لا تعرف بعد أنهما سيرزقان بعد عامين ونصف العام بطفلتهما بشرى ، ولا تدري بعد أنها سيُغشى عليها من الفرح والإنهاك حين يزفون إليها الخبر : " بنت " ، إلا أن الموت سيخطف بشرى قبل أن تبلغ الخامسة ، وسيتذكرانها بعد سنوات أخرى طويلة في خضم الورد والسرور والأنوار المتألقة عند الاحتفال بخطوبة عزيز وهند بين حشد من الأصدقاء والأقارب من القاهرة وكفر عبده ، وفوزي واقف بقامته المسالمة في ركن يصفق بيديه مبتسما برقة ، حينئذ وحينما يكون الجميع واثقين أن بشرى قد نُنُسيت تماما ، ستقترب نوال منه وهي في عز

فرحتها بخطوبة ابنها ، فتشده من مقعده وتُنهضه وتقبله وتراقصه ، وساعتها سيلوح وجه الطفلة غائما من عالم مفقود ويشق فتور الظلمة إلى العقل والقلب ، ثم يختفي . سيلوح وجهها لحظة كالشهاب لسبب ، اللحظة التي تشتبك عيناه بعيني نوال أثناء الرقصة . أما هو فسيخطر له وهو مغمور بفرح الآخرين والضحك، أنه سبق أن رأى كل ذلك في زمن ما ، طواه النسيان دون أن يدري متى أو أين .

كان الهواء يرف من دوران أضلاع المروحة وهي تهس بحركتها الثابتة في جو الفسحة فوق الجالسين إلى السفرة وقد توترت كل قواه ليتذكر زمنا كانت الوقائع فيه تشد بعضها البعض إلى الأمام .. دون جدوى . جاش صدره بانفعال شديد وأطبق شفتيه بصمت على قلبه محدثا نفسه : " لم يبق أمامى سوى انتظار الأحداث التي انقضت ، ومباهج الماضي أفرح بها مستقبلاً " . حينئذ شملته تلك الرعدة على مقعده ، فارتجف لها جسمه كله بشدة ، مرة ، ومرة ثانية . وفتح الجميع عيونهم إلى آخرها منتفضين من مقاعدهم يتابعون بنظرات الدهشة جسمه المضطرب وهو يهوي إلى الأرض متخبطا فوقها . وساعتها

وقع ما لم يكن لأحد أن يتخيل حدوثه : فقد أخذ ياسر وجدي يتلاشى شيئا فشيئا دون أن يترك وراءه أثرا: في البداية تبخرت ذراعاه وساقاه ، ثم بطنه وصدره فرأسه في عامود طويل من الدخان الرقيق . ولم يبق منه أمام الجميع سوى وشاح من رماد خفيف على البلاط سرعان ما تبدد مع أول هبة هواء من المروحة المدلاة من السقف . وتطلعت أم نوال لأعلى ناحية المروحة بنظرة تجمدت من ذعر أبكم .

لكن أحدا من الحاضرين لم ينبس في اليوم التالي بحرف عما شاهده في فسحة الشقة بحدائق القبة . ولم يفتح أحد فمه بكلمة حين رأى ياسر وجدي فيما بعد يواصل حياته كأن شيئا لم يحدث : يتجه إلى عمله ويعود بانتظام ، يستقبل الأقارب في الصالون ويتردد على كفر عبده .

◘ ◘ ◘

قطعة ليل

واصل الثلاثة سيرهم منهكين على طريق تعلو وتهبط وتلتوي كالثعبان .

الشمس في قلب السماء كالحريق ، والقمر مثبت في الجهة الأخرى ، أبيض ، بلا ضوء .

في اليوم الأول كانوا جماعة كبيرة من نحو خمسين شخصا ، ثم تساقط أفرادها من التعب واليأس واحداً بعد الآخر على جانبي الطريق . في اليوم الثالث تهاوى رجل وأمه ، في اليوم الخامس حطت أسرة بأطفالها تحت شجرة ، ثم شابان عاشقان ، ثم ذلك الرجل الذي قال إنه لا يرى جدوى من هذا البحث ، ولكنه ينضم إليهم من باب الفضول . وبعد ذلك لم تعد لدي أحد رغبة أو جهد لمراقبة الذين ينسلون بهدوء.

كان الثلاثة يجرجرون خطواتهم والغبار يتصاعد حول أقدامهم والعرق يسيل من أعناقهم إلى ظهورهم . من وقت لآخر كان أحدهم

يتطلع إلى جانبي الطريق المقفرة بحثا عن ظل شجرة ، أو إلى السماء ربما تعبر سحابة مثقلة بالماء ، أو يرهف السمع إلى خرير مياه في نهر بعيد متخيل .

قال البدين الذي احمرَّت عيناه وهو يدفع جسده إلى الأمام:

– لو أنها أمطرت على الأقل .

ولم تكن لدى الاثنين الآخرين : النحيف ، والقصير ، قدرة على النطق بشيء . في اليومين الأخيرين كانت الكلمات تخرج من الفم كأنها أحجار ثقيلة ساخنة وملتهبة.

ابتلع القصير ريقه يرطب به حلقه :

– قيل لنا إن قطعة الليل مسدلة خلف الجبل ، وهانحن قد تركنا الجبل منذ أيام ، ثم جبلا ، وآخر ، والآن نمشي فلا نصادف سوى سلاحف تطل بأعناقها من جحورها ، وشجيرات صبار ، وضوء متدفق من كل ناحية . ما من شيء ، تلاشى حتى نباح الكلاب الضالة الذي رافقنا الأيام الأولى .

قال النحيف :

– لو كان الليل في مكان قريب لشاهدنا ولو ظلا من عتمته يعبر السماء .

توقف البدين لاهثا ، ثم ارتمى على الطريق جالسا وهو يغطي رأسه بيديه الضخمتين .

توقف الاثنان الآخران أيضا .

نظر البدين إلى ساعة يده وقال بصوت مذبوح :

– الثالثة فجرا ، والضوء ساطع كالجحيم ، حتى ذرات التراب مضاءة متوهجة.

ألقى النحيف بنفسه إلى جوار البدين متسائلا :

– ألا يجدر بنا أن نفكر في الرجوع ؟

أجابه القصير :

– نرجع ؟ ألا يحتمل أن نكون قاب قوسين من الليل ؟

زفر البدين :

– نعود إلى حياتنا دون شيء ؟

تبرم القصير :

– الضوء أربع وعشرين ساعة يبعث على الجنون .

تعجب النحيف :

– يحدق الجميع في أعين بعضهم البعض صراحة ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئا ، لم يعد هناك مكان لشائعة ، أو مال متدفق ، أو خطة تُدبر.

أوضح البدين :

– لابد أن قطعة الليل مرمية في مكان ما . كيف يمكن للحياة أن تستمر هكذا ؟

علق القصير :

- جفت حلوقنا ، ونفدت قوانا .

قال النحيف :

- مازال القمر يقف قبالة الشمس أبيض بلا ضوء .

تناول كل منهم جرعة ماء ، ومسحوا جباههم بقطرات منه ، ثم استأنفوا السير.

زحف البدين إلى الأمام والعرق يغطي عينيه والملح يحرق جلده متطلعا إلى نهاية الطريق . وكان النحيف يرسل بصره إلى السماء بحثا عن طير يضرب الجو بجناحيه ، أما القصير فراح يدفع أنفه إلى الهواء لعله يتنشق شيئا غير رائحة الدخان والحريق .

سحابة رمادية ركضت مسرعة في السماء . أشار النحيف إليها صائحا بلهفة:

- انظرا !

تطلع الاثنان الآخران إلى السماء .

هتف النحيف وركبتاه تصطكان من التعب :

- لعلها الظلمة قريبة منا في مكان ما .

اضطربت عينا البدين المحمرتين بهوس وغمغم :

-لابد أنها وراء هذه الرابية .

غذ ثلاثتهم السير ، وانحرفت الطريق بهم يمينا ، ثم ارتفعت إلى أعلى ، وظهرت رابية عالية توقف عندها الثلاثة يلتقطون أنفاسهم .

وضع الطويل حافة يده فوق عينيه :

– لا أرى شيئا .

– ألم نقترب قليلا ؟

– ربما . لكن لا يبين شيء من هنا ولا يُسمع صوت .

– دقق النظر !

– لا شيء . بحر من الضوء !

مكثوا فوق الرابية يفتشون في الأفق عن خيط من ظلمة .

تقدم البدين باقتراحه :

– نستريح اليوم ونواصل السير غدا ؟

– كلا .

– فلنمض .

واصلوا سيرهم منهكين من الضوء .

◘ ◘ ◘

غيمة

توفيت أمي فجأة قرب الفجر ، وهي جالسة بكامل قواها العقلية والنفسية . لم تنطق إلا بكلمتين : جرعة ماء . اجتهد الموت معها وقدم أسبابه ثلاث مرات ، ردته، فهبط عليها كما هو – مجرد موت – عار من أي منطق ، دون سبب ظاهر يتعزى به العقل . ولم يبق أمامنا على سريرها سوى القشرة الخارجية للروح التي كانت أمنا لسنوات طويلة .

طبعتُ قبلة على جبينها وهي ممدة أمامي وانصرفتْ دموعي لمشقة حياتها أكثر من أي شيء آخر .

سألتُ نفسي : ما الذي يمكن لها أن تقدمه للموت بطاقة أخيرة وهي تعبر إلى الأبدية ؟ لابد أن هناك معنى يتصل بالعلاقة بين انتهاء الحياة وابتداء الموت ، جسرا صغيرا ، إذا لم يجده المرء يصبح الموت نهاية الطريق . ترى هل وعت شيئا تتكئ عليه وهي تسير إلى العالم الآخر؟

أنهينا كل الإجراءات اللازمة بسرعة كالمعتاد في هذه الحالات . جرى عمي واستخرج تصريح الدفن وقبل أن يعود لاهثا، كان آخرون قد استقلوا سيارة واتجهوا إلى مقابر العائلة لإعداد المثوى، بينما قصدت أنا مع اثنين من أقاربنا محل الحانوتي . وأصبح الموت موضوعا للفصال مع الحانوتي البدين الذي طالب بخمسمائة جنيه عن التغسيل وقماش الكفن والنعش وسيارة النقل . وبعد نحو خمس ساعات تحركت عدة سيارات إلى مدافن العائلة وهي تجهد لكي لا تفقد مسارها في الزحام .

* * *

توقفت أختي الكبيرة عن التردد على البيت مع أطفالها بعد وفاة أمي . قالت : لا أستطيع أن أدخل فلا أجدها . وأخذ أخي الأصغر يكرر على مدى شهرين أنه مازال يرى أمنا من حين لآخر وهي تقطع الصالة بهدوء ، بل ويجدها تتحدث إليه حين يكون واقفا بمفرده في المطبخ أو الحمام . وبعد فترة قصد أخي طبيبا نفسيا يسأله منوما أو مهدئا . قال له الطبيب إنه يعاني من هلوسة سمعية وبصرية عادة ما تظهر بعد وفاة حبيب أو عزيز . أشفقنا جميعاً على أخى لأنه يعيش في نفس الشقة تحيطه أنفاس أمي وأشياؤها . وكنا نستشعر

صعوبة وضعه إذا تجمعنا في البيت لسبب أو آخر ، لأننا كنا نحس أن طيف أمي يجوس صامتا سجينا في الهواء .

وخوفاً على صحة أخي ارتأت ثريا زوجته أن تغيرَ أثاث البيت قطعة بعد الأخرى ، حسبت أن ذلك سيبدل الجو القاتم. هكذا فوجئنا ذات يوم أنها اشترت طقم صالون جديد . وحين شاهدناه في مدخل الشقة ابتسمتْ بحرج خفيف وهمهمت كالمعتذرة وهي تفرك فوطة بيدها: نوع من التغيير. قالتها كأنها تطلب المغفرة . تأملنا الطقم وأبدينا إعجابنا به . لكني شعرت أن شيئا من روح أمي التي اعتدتُ على رؤيتها على كرسي بعينه قد ولى . ثم بدلت موقد الغاز القديم بآخر اشترته بالتقسيط ، فتلاشت صورة أمي وهي واقفة في المطبخ تغلي الماء للشاي في إبريق صاج تقشر طلاؤه . وعندما اختفت المنضدة القصيرة التي كانت أمي تجلس خلفها لتفطر كل صباح أدركنا جميعا دون أن ينطق أحدنا بحرف أن ما تبقى من السيدة التي أطعمتنا وسقتنا ينزلق من بين أيادينا إلى العدم . في النهاية قررت ثريا أن تطلي جدران البيت بزيت أخضر لامع . وحلت مكان روح أمي التي كانت تجوس بين أشيائها في الشقة صورة كبيرة لها في إطار مذهب توحي ليس بالرغبة في استبقاء وجه أمي طيلة الوقت على مرأى من الجميع بقدر ما تشى بأن المساحة الممنوحة لهذه الروح قد تقلصت بحجم إطار الصورة ، وأن علي أمي من الآن

فصاعدا أن تقنع بوجودها الذي تقلص وثُبت بمسمار في الجدار دقته ثريا بارتباك على عجل .

* * *

ربما منذ أن شرع العمال في طلاء الشقة ، أو قبل ذلك بقليل ، صرت أرفع رأسي للسماء دون سبب ظاهر أثناء سيري في الشوارع . كان ذلك يحدث أحيانا ، وأنا أمشي بمفردي ، فإذا كان ثمة من يسير معي واستغرب ما أفعله ، سارعت أداري نفسي بنظرة خاطفة إلى ما بين قدمي أو إلى واجهة أقرب محل ، دون أن يبدد ذلك الحيرة الصامتة في عيني الآخر عن بسبب نظرتي المفاجئة نحو السماء .

كنت أرفع عيني إلى أعلى بحثا عن شيء مجهول لم أره من قبل. ربما كان سحابة كبيرة بيضاء ، أو فراغا لا أدري شكله ، أو روحا كالغيمة منداة بالدمع .

* * *

ساعة دفن أمي كنت مسروقا من نفسي ، فلم يعلق بذاكرتي سوى ذوب صور مما جرى ونحن نعبر البوابة الحديدية العالية إلى مدخل المدفن بين صراخ أطفال وشحاذين ومقرئين نحو الفسحة الداخلية

المدورة المبلطة ، وعيناي كأنما في حلم يراه شخص آخر تمسحان بنظرة غائمة أسماء الراحلين المنقوشة على الشواهد الرخامية العالية في الجدران. غالبية الأسماء معروفة لي . من بينهم تهاني بنت عمي الأكبر . كانت لهم فيلا من طابقين بحديقة واسعة مزروعة بأشجار المانجو والجوافة والليمون في أرض النعام، خيم عليها حينذاك هدوء، وصحا فيها هواء نقي ، وتناثرت المساكن القليلة فيها على مسافات بعيدة . كنت متيماً بتهانى وأنا في الثالثة عشرة ، مغرما حتى باسم التدليل الذي ناديناها به "توتة " .

كانت أكبر مني بعشر سنوات ، لكن نظرة عينيها الواسعتين الصافيتين كانت حين أتطلع إليها ترتجف كسماء يشقها ضوء نجمة. وصار من عاداتي أن أستعد لزيارتها عصر كل خميس فأشتري خصيصا لأجلها عددا جديدا من مجلة " مئة نكتة " ، وأعكف عليه طيلة الليل أحفظ منه قدر ما أستطيع ، ثم أنام مؤرقا . أستيقظ يوم الجمعة مع أول خيط من النور ، وأظل فترة أنتقي الأفضل من بين ثيابي القليلة . ثم أتجه إلى الشارع الموازي لشارعنا ، أركب الباص من الموقف ، وأرتكز برقبتي على حافة نافذة مقعدي ، وأسرح في الشوارع الخالية التي يقطعها الباص زمنا طويلا ، وتوتة في خيالي ومناظر الطريق تتبدل.

أصل إلى بيتهم ، وأتجول مع " توتة " في الحديقة براحتي ، لأنني صبي ، أحكي لها أي شيء فتعلق على كل ما يقال بضحكة : معقول ؟ لا . لا ! وتغرق في الضحك وهي تهتز مرتجفة مع هواء الحديقة الواهن المشبع بعطر الليمون . أسرد عليها النكات واحدة في إثر الأخرى بلا توقف ، فتضحك وتضحك حتى تفيض عيناها بدمع الحنان وتطبع على خدي قبلة خاطفة وحمرة تصعد إلى وجنتيها . أتجمد في مكاني كالمذهول ! تردني إلى وعيي بسؤال – كأنه استفسار عابر – عن أحوال خالي الذي أوشك على إنهاء تعليمه . لم أعرف أبدا إلى أن خطفها الموت إن كانت تداري بالقبلة حبها لخالي؟ أم كانت تداري باستفسارها عنه حبها لي؟ كنت أصغر من أن أسأل ، وكانت أكبر من أن تبوح .

في المدفن كان شعوري باهرا بضوء الصبا القديم الذي انبعث من الموت ، كأنني لم أكن واقفا أودع أمي التي نمونا على ذراعيها كحبات عنب على فروع التعكيبة . كأنني جئت لألتقي توته . كنتُ أشعر بوتر رنان يهزني من محبة لم أتوقع ظهورها بهذه القوة وغمرني تأنيب عذب ومؤلم للفرح الخفي الذي أحسسته من لقائي بتوته بعد كل تلك السنوات .

سألتُ نفسي : إن كانت الطاقة لا تفنى ، فإلى أين تنصرف مشاعر الدفء والحب التي يهبها البشر بعضهم البعض ؟ هل تتجمع

في مكان ما وفقا لقانون خاص وهناك تواصل حياتها في شكل آخر؟ لكن .. أين ؟

لم أهبط مع أمي إلى قاع القبر . ولم أحملها إلى هناك . لم أفعل ذلك مع أبي أيضا حينما ألقوا به يوما إلى هوة سحيقة. لم أستطع . فالموت مثل حكم بالإعدام ، أما الدفن فيشبه لحظة التنفيذ حين ترى العينين والوجنتين وهي تُدفع دفعا إلى التراب .

* * *

هكذا صرت بعد دفن أمي أجدني وأنا أسير بمفردي أرفع رأسي أحيانا إلى أعلى ، على غير إرادة مني ، متطلعا إلى شيء مجهول في السماء ، غيمة من الأرواح تسأل برفق عن أحبائها .

◘ ◘ ◘

تصادف أننى..

تصادف أنني رأيت عينين واسعتين ، لا تتكسران من أنوثة قدر ما تغدقان علي الجالس إليهما شعورا حادا بالقوة والوضوح ، كأنهما حقيقة ظهرت فجأة لا تقبل الجدل أو الشك . عن هاتين العينين كتب شاعر في مقتبل العمر على كرسي بمقهى في الثانية فجرا من مطلع يناير 1943 يقول :

" حولي عينيك إني لا أطيــق
ما تصبان بنفسي من حريق "

كان شابا نازحا من الريف كل ثروته قصائده وآماله الجارفة وصوته العميق . التقي بها في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول مصادفة وهو يلقي شعره هناك ، فكتب لها والقلق يأكل روحه والنار تلفح وجهه :

" حولي عينيك إني لا أطيق "

ومنذ أن تطلع إليها الشاعر الشاب مأخوذا بها يقرأ عليها قصيدته بصوته الجهير ، لم تحول عينيها عنه ، تلك الشابة الجميلة التي ضج بدنها الملفوف بعنفوان وتماسك هائلين ، لم تنقل عينيها أبدا إلى شيء آخر ، حتى عندما أهملَ الحب الأول ، وتقلبَ من ذراعي امرأة إلى أخرى ، ومن بيت لآخر، ومن أطفال لأطفال ، ومن قصيدة لأخرى بلا نهاية . ظلت تتبعه عينيها وحبها الثابت لأنه كان حقيقة ومعنى وجودها كله .

تعرفتُ إلى هذه الشابة الجميلة عام 1948، كنتُ صغيرا حينذاك. أطعمتني لقمَمًا مدورة بأصابعها وأنا أهز ساقي من فوق أريكة في بيتها ، وسقتني . وتصادف أنني رفعتُ رأسي أحدق في وجهها ، ورأيت عينيها : واسعتين تسددان إلى أغوار القلب طاقتها وحيويتها.

عام 1972 تركتُ مصر وكانت السيدة تقترب من الخمسين. لم أرها بعد ذلك لزمن طويل ، كانت خلاله تكبر ، اختلفت مشيتها قليلا ، وأمست تخطو ببطء بكتفين محنيتين شيئا ما ، لكن دون أن تحني رأسها أو تتحلل في عينيها بلورةُ النظرة المتماسكة .

كان أصحاب الدكاكين أسفل العمارة التي تسكنها قد ألفوا تجوالها الصباحي وحدها في الشارع بعباءة سوداء مسدلة ، تشتري الصحف والخبز ثم تقفل راجعة تصعد إلى الطابق الثالث وتتوقف بعد كل طابق لاهثة تستند إلى درابزين السلم، إلى أن تبلغ شقتها

فتدخل وتلقي بما في يديها على كنبة بغرفة الجلوس ، ثم تدفع بيديها الاثنتين مصراعي الشرفة ، وتلبث قليلا تتفرج بتيار الناس في الشارع يمضي ويتفرق تحت بصرها في كل ناحية ، والباعة عند عرباتهم ، ولغط الحياة ، وأخيرا تنسحب إلى الداخل ، تقعد على الكنبة وأمامها ترابيزة مرتفعة ، تشرب قدحين من الشاي من إبريق على صينية : الأول باللبن والثاني سادة .

حينرجعتُتُ إلى مصر بعد سنوات ، كان الشاعر قد غادر هذا العالم ، وتفرق أبناؤها ، وصارت تعيش بمفردها في الشقة الفسيحة الصامتة تنسي أشياء وتذكر أشياء أخرى . عرجتُ عليها ، ربما كان ذلك عام 1990 أو بعده . وجدتها كما هي تقريبا . تشرَّخ صندوق الكمان ، أما الأوتار فظلت دون تغيير يُذكر مقرونة مازالت بلحن وغرام قديمين . قرب المنضدة التي تجلس إليها كل صباح احتفظت بديوان قصائده، وفرشاة كان يرجل بها شعر رأسه ، وخطابات قديمة يعود تاريخها إلى عام 1946 ، و1947 ، وأخرى أرسلها إليها من داخل المعتقل عام 1953 .

عيناها كانتا نفس العينين الواسعتين ، تشاكسان بتحد ضاحك . لكن شيئا فيهما بعد رحيل الشاعر كان ينفلت من دورة الحياة حولها و يصب روحها كلها بعيدا في عالم آخر . أدهشني أنها ما زالت

كما رأيتها وأنا صغير تعيش حقيقة واحدة ، كما يحيا الإنسان علي ضوء نجوم ربما لم تعد موجودة منذ زمن بعيد .

قاومتْ الشابةُ ، العجوز ، ذات العينين الواسعتين ، الزمن ، وخرجتْ معافاةً أكثر من مرة بعد اشتباكها بالمرض ، ولم تدع شيئا يطفئ بريق عينيها اللامعتين، لكن قواها كانت تخور بالتدريج ، إلى أن أغلقتْ عينيها فجر يوم الاثنين أول مايو .

فتحتْ باب غرفة نومها في الثالثة والنصف ، وخرجت إلى الصالة، ومنها إلى غرفة الجلوس حيث كانت ابنتها تلعب الورق مع ابن عمها . وقفت في فرجة الباب الموارب وقالت لهما وهي سعيدة بونس الليل : سأتسلى معكم بلعب الورق . دخلت وحطت جسدها بتثاقل على الكنبة أمامهما ، ثم تحاملت على نفسها تعتدل أمام المنضدة ، وقالت لابنتها : شغلي المروحة . فقامت وأدارت بإصبعها مفتاح المروحة المعلقة في السقف ، وقبل أن تستدير ابنتها إليها بالكامل سمعت صوت ارتطام رأس أمها بالجدار ، ورأتْ في لحظة كيف جرى خيط دقيق من الدم من أنفها فصرخت .

في حوالى الرابعة أيقظني جرس الهاتف برنين متصل . وبعد نصف ساعة كنت أصعد سلم بيت السيدة. حينما بلغت الطابق الثالث رأيتُ باب شقتها مفتوحا . دخلت . كانت ابنتها وابن عمها جالسين في الصالة مع الطبيب في صمت ثقيل مشوب بضوء الفجر .

دلفت إلى غرفة الجلوس لألقي نظرة عليها : كانت مسجاة على الكنبة ، المروحة المعلقة في السقف تطن فوقها ، وقد تغطى وجهها وجسمها بملاءة بيضاء خفيفة . رفعتُ الملاءة عن وجهها : كانت عيناها مغلقتين ، وفمها مفتوحا لأسفل قليلا . بدتْ كالغافية دون نفس أو حركة . كانت تلك أول مرة في حياتي أتأمل فيها روحا تترك بدنها . تأملتها مرة أخيرة وأحسست أنها تواصل التطلع إلى الشاعر الذي فتنها ذات مرة عام 1943 حين قال لها : حولي عينيك.
دسست يدي الاثنتين تحت كتفيها ورفعتها لأعلي . ضممتها بقوة وقبلتها . تمنيت لو تسري حرارة قبلتي إلى الروح الموغلة بعيدا .

◘ ◘ ◘

إغفاءة

أحيانا يبقي الضيف العجول وراءه سيجارة متوهجة عند حافة مطفأة، أحيانا ينسى الراحلون شعورا في غور النفس ولا يعودون لإطفائه . في التاسعة من عمري كنت صغيرا في عالم عجوز ، جديدا في دنيا قديمة . وكنت نحيفا بسروال قصير وقميص خفيف حين أسندت رأسي على ذراع أمي ونحن جالسين متلاصقين على دكة خشبية بغرفة مأمور السجن . كان الطريق الطويل والانتظار قد أرهقاني عندما دخل علينا والدي من الباب المقابل لنا . كانت يده اليمني مقيدة بحديد ليد الحارس اليسرى ، لكنه ما أن رآنا حتى تهلل وجه ، ثم ضحك بفرحة من حلق بوثبة واحدة في سماء عالية. رفع معصمه ومعصم الحارس المقيدين لأعلى في الهواء يقول لى: " لقد سجنت هذا الرجل لأنه شقي " . وتطلع للشاويش بجدية سائلا إياه : "أليس كذلك يا شاويش؟ " . أجابه الرجل الطيب : " مضبوط يا بك".

وسألني وهو يزحزحني ليجلس قربي : " شفت ؟ " . كنت صغيرا جدا ولكني كنت أعلم أنه محبوس ، مع ذلك أحنيت له رأسي بالإيجاب قاصدا أنني صدقته ، فابتسم أنه أشاع طمأنينة في نفسي ، وابتسمت أنني أرحته .

وكنت محبوسا فيما بعد ، وكان طليقا . زارني وجلسنا في غرفة مأمور آخر ، بسجن آخر . هذه المرة لم تسعفه حيل الكبار الأولى ولم تسعفني براءة السنوات الأولى . راح يتطلع فيما حوله بقلق مفتشا في الغرفة المقبضة عن ريشة من طائر البهجة ، ثم وكأنما عثر عليها أخرج كيسا كبيرا دفع به تحت أنف المأمور قائلا : " وضعتُ هنا كل الممنوعات معا الشاي والبن والورق والأقلام لتسمح بمرورها كلها دفعة واحدة " . وداری المأمور ضحكته بيده . فابتسم وضمني بعينيه يسألني دون كلام : " شفت ؟ ".

مرة ثالثة قدر لنا أن نكون معا وأن نرحل في السر من القاهرة إلى الإسكندرية ، لنغادر إلى بيروت على ظهر باخرة، ولم يكن معنا مليم واحد . وكان البوفيه مفتوحا على سطح الباخرة طيلة اليوم ونحن جالسين أمامه في هواء البحر نتطلع صوبه ونشتهي قدح شاي كاليتامى . وعندما حل الغروب ضاقت فسحة الأمل وسألت نفسي : " ألن نجد حلا؟". ولم يحرك ساكنا حتى التاسعة مساء عندما أغلق البوفيه أبوابه وتلون الجو من ليل مبكر حولنا فوجدته ينتفض واقفا

نافخا : " الحمد لله الآن سنأكل ونشرب كل ما نشتهي " . ولم أفهم إلا بعد أن اتجه إلى قبطان الباخرة يحتج على إغلاق البوفيه مبكرا ! وتعرف إليه القبطان ففاض بالترحاب به وأقام لنا وليمة حافلة بمختلف الأطعمة والمشروبات اللذيذة .

وحينما غادرنا غرفة القبطان كان الليل سارحا في خواطره. ووقفنا معا تحت ضوء قمر واضح على سطح الباخرة المتأرجح ، وموج لا نراه يرشنا من تحت السور برذاذ خفيف. تطلع حوله يستوثق أننا وحدنا ، ثم راح يكتم ضحكاته المتدافعة وهو ينحني على هامسا : " شبعت ؟ " .

عندما غادرني للمرة الأخيرة ، أخذت أتردد عليه في محبسه الأبدي ، وكان يأتيني من حين لآخر في حبسي المؤقت ، وكنت حين نلتقي أحكي له بعضا مما يطرأ على حياتي من حوادث و طرائف ، أما هو فكان يتألم لأنه كان يضطر للاكتفاء برواية نتف من أحداث قديمة . كنت أقطع له بأن حكاياته ممتعة مهما تكررت ، فأراه يسدد نحوي نظرة شك وتعب . ومع ذلك كنا نحاول بإخلاص أن نحمي كل مرة ما وعته الذاكرة من رذاذ الوجود الوهم . وكان إذا أحس حرارة المحاولة من جانبي يبتسم بأسى مجتهدا أن يحتفظ بعينيه مفتوحتين ، ثم ما يلبث أن ينعس ، وصوتي يتحدر إليه بالحكايات رتيبا أليفاً . أقص ما استجد من أحداث في الحي ، والشجارات التي

وقعت ، وما قالته عمتي عن بناتها ، وحكاية عم زهران في حدائق القبة حين هام بهدى التي أرخت ضفيرتين غليظتين وشرعت نهديها وفتحت في الدنيا عينيها الواسعتين .
أتركه ينعس قليلا ، وأعود إليه .

▫ ▫ ▫

نتف الثلج

ثبتنا أقدامنا على السلم الكهربائي بمحطة المترو وهو يهبط بنا من السطح إلى جوف المحطة التي بدت من أعلى كقفص حديدي ضخم لُجمت بداخله القطارات.

تقدمتني في وقفتها على السلم والتصق ظهرها بصدري . انزلقت يداي من فوق كتفيها ورقدتا معقودتين على صدرها ونحن نهبط على مهل .

التفت أصوات الأقدام الراكضة إلى القطارات وصرير العجلات الحديدية ودقات كعوب الأحذية النسائية وأنصاف الكلمات في سحابة تعلو ببطء فوق رؤوس النازلين إلى النفق. من على الجدار المقوس عن يميني أطل " جوركي " من صورة زيتية ضخمة بالبسمة والنظرة المريرة القديمة .

كنا في طريقنا من محطة " جوركي " إلى محطة "شارع ماركس " لتوديع صديق مسافر يسكن قرب مخرج المترو.

توقف بصري على وجه نحيل لشاب يقبل صديقته وسط جموع النازلين على السلم الكهربائي . بالتدريج بان لنا حراس المترو تحت وهم في زيهم الأسود الخاص . شعرت بصدرها يتنهد ويرتفع بيدي المتقاطعتين فوقه كصليب . المصادفة وحدها جعلتنا نلتقي ، رغم أن حياتها وعملها في مدينة أخرى ، فكانت تنتهز أيام الإجازات لتسافر إليّ ونتقابل .

أحسست خلف رأسي بأنفاس رجل بدين يتنفس بصعوبة . ملت أتأمل صفحة وجهها المعذب . هل حل عليها التعب بعد أن تقطعت المحبة سنة بعد سنة إلى خطابات ومكالمات ؟ لماذا تبدو دائخة ؟ هل أرهقتها ألوان التعبير التي تتبدل على مختلف الوجوه ؟

غاص بنا السلم الكهربائي إلى الدرك الأخير حيث يجلس كل حارس في كابينة خاصة . قطعنا عدة خطوات بين الأكتاف والأيادي وأبدان المهرولين في كل اتجاه إلى أن وصلنا إلى رصيف القطار اللازم ، فتوقفنا . رفعتْ نحوي وجهها بعينين دافئتين وقلق وغمغمت :

– أحس بنفسي متعبة .. لا أدري لماذا .

ثبت بصري على ملامحها الشاحبة الرقيقة وقفز لرأسي خاطر أنها قد تتخذ قرارها الآن بقطع ما بيننا . ضممتها إلى، فلما أراحت رأسها على كتفي شعرتُ بأننا كتلة واحدة حارة انعدم من حولها النفق والسقف المرتفع واللغط .

أطلت القاطرة من جوف الظلمة كوحش يُساق بالسياط . وانفتحت أبواب العربات وانطلق الخارجون يتقاطعون بسرعة في كل الاتجاهات ، وعندما لفظت القطارات ما بها دخلنا ولمحنا مكانين شاغرين فاندفعنا إليهما وقعدنا . أخذت عربة المترو التي ازدحمت من جديد تتحرك وتعوي كوحش بين جانبي النفق المظلم . مرقت الجدران المعتمة بسرعة من وراء زجاج النوافذ . وكان الفتى النحيل الوجه قد جلس قربنا ساهما ورأس صديقته على كتفه . مقابلنا قعدت امرأة أرسلت نظرتها إلى فراغ ، وبجوارها طفلة تخطف العين . بدا من الخاتمين الذهبيين أن الفتى وصديقته مقترنان . طبعتُ قبلة خفيفة على شعر صديقتي المرسل على كتفيها وطوقت خصرها ، فتأملتني لحظة مبتسمة بوهن وصفاء .

توقف القطار . محطة " مايكوفسكي " . تدافع الخارجون . لاح بينهم الشاب النحيل الوجه وزوجته ملتصقين كموجة في بحر . تدفقت لباطن العربة جموع أخرى . اتجه رجل قمحي اللون على أعتاب الخمسين إلى المقعد بجوار الطفلة ثم أخرج صحيفة مطوية

من جيب البالطو وأخذ يتصفحها . دخلتُ عربة المترو النفق المظلم ثانية . صديقتي مستغرقة في دنيا أخرى . هل هو نفس السؤال ؟ قلبٌ مقسم على مكانين ، سنة وأكثر وخيط مشدود من أعصابنا وشبابنا يتوتر حتى يكاد ينقطع . والعمل ؟

تحاول الطفلة الصغيرة بكل الطرق جذب انتباه أمها إليها لتتكلم معها . تأسر حركات البنت الرجل القمحي اللون . يتفتح في بسمة ، وبكلمات هامسة في أذنها يسرق اهتمامها كله ، فتعتدل ناحيته مسرورة . على مسافة ترنح رجل بين الواقفين يزفر أنفاسا مخمورة ثقيلة. تشبثت يده بالعامود الحديدي ، بينما مدت ذراعها تسنده امرأة روسية قصيرة صابرة . زعقَ فيها زعقة هائلة وراح يتحرش بالركاب مفتشا عن عدو له في نظراتهم . تطلع إليه البعض بدهشة وهدوء. أحسستُ بكفيها تحطان على يدي . التفتُ إليها . حدقتْ في بعينين مغرورقتين بسحابة دامعة . شعور ثقيل يواتينا بأن النهاية تحوم بجناحيها فتظلم الدنيا تحتهما . أردت أن أشغلها عما بخاطرها فهمستُ لها :

– ألا تتمنين بنتا جميلة كهذه ؟

قالت :

– نعم .

واستجمعتْ أنفاسها لتضيف بما تيسر من مداعبة :

– أمها أيضا حلوة ؟

ابتسمت لها في صمت . أي صراع يعتمل في روحها ؟ وأية آمال؟ . يلح عليها مشروع الإقامة في موسكو .. لكن ما الذي يخفيه الزمن لنا ؟

توقفت العربة . محطة " ساحة الثورة " . غادرت المرأة القصيرة الصابرة وهي تسند الرجل الثمل . راح يتلفت من على الرصيف متطوحا يتفحص وجوه الركاب من خلال نوافذ العربة . كان ما زال يبحث عن عدوه الذي لا يعرفه .

واصلت العربة اندفاعها . المحطة القادمة " شارع ماركس". وقع بصري على شاب يشبه صديقي بأنفه الحاد وجبينه العريض . الرجل قمحي اللون يضع حقيبته الجلدية على ركبتيه ويفتحها . يخرج منها أقلاما ومجلات يناولها للطفلة لتتفرج . الطفلة تجذب المجلات بقوة وتضحك مشيرة بإصبعها إلى صورة ملونة . رمقتْ أمها الرجل باستغراب خفيف ثم انطفأ التعبير في وجهها وعادت ذاهلة ترسل نظرتها إلى الفراغ أمامها .

سنهبط المحطة القادمة ، ونتجه إلى منزل صديقي لتوديعه قبل سفره إلى الوطن .

كل وداع ينطوي على مرارة . قال لي ذات يوم : " الموت في جحيم مصر أبقى من حياة الجنة خارجها " . لمَّ حاجاته وقرر الرجوع .

شعرتْ صديقتي أني مستغرق في شيء . رفعت رقبتها متطلعة إلى وجهي . لم أعد أدري بم سينتهي كل ذلك . هل تسافرين معي ؟ أظل هنا ؟ أم ننسى كل ما بيننا ؟

امرأة واقفة بكيس ثقيل من بطاطس وخبز في يدها قالت ضاحكة للرجل القمحي:

– حلوة بنتك هذه .

تأملتُ الرجل والطفلة معا . ورأيت – كأنما فجأة – أنهما يبدوان كأب وابنته حقا. نقلت بصري إلى الأم وشاهدتها بعين أخرى : راكبة عابرة جلست بالمصادفة بالقرب منهما .

توقفت عربة المترو . محطة " كارل ماركس " . خرجنا في موجة المتزاحمين ويدانا متشابكتين . التفتتْ إلى وقالت بصوت مضطرب:

– سأبقى في موسكو وأبحث عن عمل هنا .

كان بصوتها رنة ضياع تفتش عن عزيمة . ضممتها إلى صدري ضمة خفيفة لكي لا ترى نظرتي . صعد بنا السلم الكهربائي إلى أعلى في بطء . شيعتنا نظرات الحراس بثقالة من صوف الزى الأسود .

خرجنا من الجو الدافئ داخل محطة المترو إلى برد الشارع . مرق المارة مسرعين في مختلف الاتجاهات بمعاطف سميكة متشابهة . قرصتنا الريح الباردة تهب من جليد وراء سور من

أشجار بعيدة . لاح كشك قريب على الرصيف في هالة ضوء أصفر ضعيف ، أمامه تناثرت عدة مناضد ، جلس البعض إليها يحتسى المشروبات الساخنة.

جمعتْ صديقتي أطراف معطفها على صدرها. تطلعنا معا إلى الكشك . واتفقنا بنظرة على أن نحتسي فنجاني قهوة قبل أن نصعد إلى صديقي .

أسرعنا الخطو إلى هناك ، والأشجار العالية عن يميننا تلقى بظلالها المتعاقبة على الرصيف . في ضوء أعمدة النور كانت نتف الثلج البيضاء المتساقطة تلمع كشرارات متلاحقة فوق الإسفلت المبتل ثم تنطفىء .

◘ ◘ ◘

قرب الفجر

لا . لم ينقطع الحديث . وكان الجميع يتجاذبون أطرافه بحيوية وهم يدخنون ويشيحون بأيديهم من مختلف جهات ومقاعد الفسحة . ولم يكن ليخطر لك – لو أنك طرقت الباب ودخلت – أننا كنا في انتظار أحد . فلم تكن علامات الترقب أو القلق ظاهرة على أي منا . بالعكس كانت الأصابع تمتد إلى سطح المنضدة الزجاجي الشفاف وتلتقط المكسرات والعصائر ، والعيون تلمع بالاستجابة السريعة للتلميحات ، أو تدمع من القهقهة للنكات المرسلة . كان لابد لك أن تكون من ذلك النوع من البشر ذى القدرة على الملاحظة الدقيقة ممن يثقبون بنظراتهم المتفحصة هالات السطح البراق وينفذون إلى ما تحته لكي تلحظ أن من بيننا من يسترق النظر بسرعة خاطفة إلى ساعة معصمه ، وأن أحدنا ينهض كأنما تعب من جلسته واعتماده على الوسائد الصغيرة ، ثم يخلع جاكتته ويذرع الفسحة محركاًاً جسمه ورقبته ، لكنه يبطئ خطوه لأقل من ثانية حين يدنو من الباب ويرتجف زغب خفيف بأطراف أذنيه يتنصت على هواء السلالم

وراء باب الشقة ويمد السمع إلى الطابق الأول ومدخل العمارة حتى حلق الشارع الذي يلمع بالأضواء أمام المحلات .

ظللنا نترقب مقدمه طيلة الليل حتى عندما فرشت السفرة بالأطباق . لكنه لم يأت. ولم أعبأ بذلك . إلا أني أحسست بكدر خفيف . قيل لي إنه من الأفضل أن أتعرف إليه ، قد ينفع أولادي ، وقد يساعدهم على شق طريقهم . استغربت حينذاك ، ولم أعلق بشيء . قلت لنفسي : " ربما تلوح فرصة غير مصطنعة لمقابلته " . والحق أني لم أسع إليه رغم شعوري بمنزلته ، ولم أجتهد كثيرا لتدقيق ما يشاع عنه . الكلام كثير والأصدقاء يخلطون بين الحقيقة وتصوراتهم الذاتية عنها ، وغالبا ما يصبغونها بلون قاتم من مشاعر شخصية نجمت عن وقائع خاصة . لكنهم استثاروا فضولي بإجماعهم على أنه شخصية ذات شأن ، لابد – سواء اتفقت أو اختلفت معه – من أن تحسب له حسابا .

مرة واحدة ومض جانب من وجهه عندما لمحه صديق فأشار إليه بسبابته من بعيد ليريني إياه هاتفا : ها هو ! . كنا ساعتها في زقاق ضيق يلتوي كالأفعى يعج في جانبيه بمنصات مفروش عليها ملابس من كل الأنواع ، وصياح ، اخترقه موكب جنازة صغير مضى فيها صبي بجلابية ينط في الهواء رافعا يديه إلى أعلى ، ويهبط إلى الأرض كأنما بنابض .

تصورتُ إني لمحت جانب وجهه ، ولكني في الحقيقة لست واثقا من ذلك . ربما خيل إلى من انفعال صوت محدثي وثقته وارتجاف سبابته أني أيضا لابد أن أكون قد رأيت شيئا منه قبل أن يتوارى بسرعة في عتمة منعطف جانبي على ناصية محل تسالي . ولم تبق في ذاكرتي من صورته سوى ذيول من ظلال تغيب في الظلام . لكني حمدت الله حينذاك أني لا أرتب حياتي على علاقة به أو اعتماد عليه ، كما فعل بعض أفراد عائلتي ممن لا يكفون عن ذكر اسمه باحترام .

كان بيت عمتي نفيسة – هي عمة والدتي لكن جرت العادة أن يناديها الجميع ب " عمتي" – من البيوت التي تُكثر من استقباله. فسرتْ أمي لي ذلك يوما بقولها : " لأن عمتك نفيسة كانت تستضيفه مع المرحوم جدك في المناسبات ، وهو على مشاغله وترحاله لم يقطع حبل الود " . كانت عمتي هذه تسكن في الزيتون ، وتعيش وحدها بعد وفاة ابنها بسيوني . أدهشني وأنا صغير أنها تقريبا فاحمة السواد مع أن جدي كان شاهق البياض . وقالت لي أمي إن جد جدي كان متزوجا من تركية أنجب منها جدي ، ومن حبشية أنجب منها نفيسة . وكنت ألزم نفسي بزيارتها إذا تصادف وكنت ناحيتها.

جلستْ كعادتها دائما بالقرب من صينية صفراء نحاسية عليها موقد سبرتو فوقه كنكة قهوة صغيرة مطروقة بالفضة . تهلل وجهها الطيب وأنفها الضخم وحنكها الواسع من السرور لمقدمي . كانت تمشي بصعوبة و تحيا على معاشي زوجها وابنها إلا أن شقتها كانت نظيفة دائما يجري هواؤها متجددا . قالت لي بصوتها المسلوخ المرتفع : "عمتك عجوز صحيح لكن الناس لا ينقطعون عني لأن جلستي ترد الروح ، كما أنه – واكتفت برفع حاجبها إشارة إليه – قد يزورني ولا بد أن يكون المطرح نظيفا ".

صدرت عني كلمة عابرة وأنا أشرب القهوة ، فأشاحت بذراعها مستنكرة : " لا تصدق كلام الناس . إنه لم يدع أحدا في ضائقة دون أن يشمله بعطفه . لا يكرهه إلا من يخافونه لدناءة في نفوسهم أو حسد " .

فكرت أنه لابد من مقابلته إن حانت الفرصة لأرى من يكون . ولما دُدُعيت تلك الليلة إلى العشاء وقيل لي إنه سيحضر ذهبت إلى هناك بأمل .

كنا جميعا نترقب قدومه دون أن يُبُظهر أحدنا علامة على ما بداخله .

لكنه لم يأت . وغادرت المكان حوالي منتصف الليل . انتظرت الأتوبيس طويلا في الشارع تحت رذاذ مطر ، وعدت إلى بيتي

وزوجتي التي سألتني ما أن فتحت لي الباب: " قابلته ؟ " . قلت وأنا أنفخ ضجرا : " كلا . لم يحضر ولم يكلف نفسه الاعتذار بالهاتف ".

قررتُتُ بعد تلك الليلة ألا أصدع رأسي به . جاشت نفسي بغضب: من يكون ؟ مجرد دخان كلمات وآمال وجزع واحترام ونظرات أشخاص آخرين . وقلت لروحي بحزم : "أيا كان سلطانه ومنزلته فلنفسه وليزدرد كل ثرواته في وحدته دون أهل أو صديق ". طردت طيفه من عقلي . وساعدني على قراري أني وأنا في عملي ذات صباح فتحت جريدة فوجدت خبرا في صدر إحدى صفحاتها عن سفره إلى إيران ومنها إلى أرمينيا . وأبديت دهشتي من رحلته إلى أرمينيا فعلق زميلي الجالس أمامي بقوله : " أشغاله تملأ الدنيا" . قلبتُ شفتي السفلى من حسد خفيف ، فأشاح بيده : " أنتَ عجيب . قريبك ، ولا تستنفع منه بشيء ؟! " . لكن سفره خارج البلاد لفترة طويلة أمدني بقدرة على إبعاده عن ذاكرتي ، أو هكذا خُيل إلى وقتها. وانغمستُ في شئون متعددة من حياتي إلى أن لمحتني زوجتي ذات يوم وأنا أخرج من مطعم "فلفلة" متأبطا ذراع زميلة من العمل . لم أعلم أنها شاهدتني إلا حين دخلتُ البيت فارتطمتُ بها ثائرة في الردهة. جذبتْ شعر رأسها واستعدَّته عليَّ مُهددة بأنه سيأتي بنفسه غدا وساعتها يكون الكلام . ومضتْ إلى المطبخ حانقة تنعي حظها

في الحياة . همس لي ابني الأوسط بأنها اتصلت بوالدتها في الفيوم وكلمتها عن الطلاق ، فوعدتها أمها بفتح الموضوع معي .

تعمدتُ في اليوم التالي أن أرجع إلى البيت في ساعة متأخرة من المساء لكي تعي أنني لا أخشى أحدا أيا كان . وأنا أفتح باب الشقة أمضني أمل خفي أن يكون جالسا في الصالة عندنا فأراه وأتمعن فيه. لكني لم أجده ، فلزمت الصمت . قالت لي ابنتي في الصباح وهي تغسل وجهها في الحمام إنها نامت بالأمس مبكرا كعادتها ، ولا تدري إن كان أحد زارنا أم لا .

استأنفتُ حياتي لا أقيمله اعتبارا حتى دعيتُتُ بعد نحو شهرين إلى منزل خالي عبد الرازق في الروضة . فوجدت سرادقا كبيرا منصوبا من أول الشارع قرب العمارة ، وكلوبات معلقة ، ورجال بأحزمة سوداء على خصورهم يروحون ويجيئون بصوانٍ بين الجالسين . أول من قابلني خالي عبد الرازق ، راح يضمني بين ذراعيه وعيناه تدمعان بوجد وفرح . سألته وصوتي مكتوم من عناقه: "ما الخبر؟". أطلقني ونظر إلى بتأثر : " لن تصدقني إن قلت لك إنه قادم إلينا هذا المساء . لقد وعد فاجلس وانتظره معنا " .

ظللنا ننتظر في شقة خالي إلى أن شعشعت أولى أنوار الفجر ثم صبغت السماء من وراء نافذة الصالة . أصاب الإرهاق بعضنا فقام ومدد جسده على الأرائك وعلا شخيره . ونهضت زوجتي بعد أن

تساقط رأسها مرات على صدرها ، واعتذرت بأنها لا تستطيع أن تترك الأولاد وحدهم في البيت طويلا . بنظرة من ركن عينيها أدركت أنها تحثني على البقاء متفهمة دواعيه . هدأت الحركة في السرادق وخفت اللغط الذي كان يتناهى إلينا . لم يحافظ على يقظته قرب الفجر كما كانت أول المساء سوى خالي عبد الرازق الذي ظل مفعما بثقته في قدومه ، فلم يخب بريق الوجد في عينيه .

قاومتُ النعاس طويلا واستعنت عليه بفناجين القهوة المرة المتكررة ، لكني غفوت لحظة بعد أن ظلت عيناي مفتوحتين ساعات دون أن تبصرا ، وعندما هززتُ رأسي بشدة لأطرد النعاس رأيته وهو يدخل بهدوء دون أن يُسمع لقدميه صوت. قطع غرفة الجلوس بعرضها متجها إلى خالي مباشرة . مدّ يده إليه يصافحه بود ووقار لطيف ، وقعد بجواره على الأريكة . تجمد بصري عليه . بسط ذراعه اليمنى على امتدادها ، وتموج في الهواء كمها المُنسدل يملأ ناظري كالفضاء . ثم تهيأ لكي يفضي بشيء ما ، لكن دخان السجائر العالق في الجو ضايقه فنهض وسار نحو النافذة الكبيرة بصدر المكان ومد يده يفتح مصراعيها فتناثرت من تكسرات ثوبه الحريري دوائر براقة كالأصداف أمام عيني . تابعت مشلول الإرادة رجوعه الصامت إلى أريكة خالي . ودفعت صدري إلى الأمام محاولا من

مقعدي أن أتنصت على ما كان يهمس به هناك . وأرهفت أذني لا أدري كم من الوقت في المكان الأصم الشاغر.

▫ ▫ ▫

السند

قبل الغداء اشتد حر الظهيرة . صعد الصبي إلى سطح البيت بفانلة داخلية بيضاء وسروال قصير قديم . راح وجاء على السطح دون هدف . إجازة الصيف طويلة وليس ثمة ما يفعله . تفحص عن قرب كاوتش دراجة قديمة كانت لخاله فؤاد مرمية في ركن بين براميل خشبية . انتقل ببصره إلى علب الصفيح الكبيرة التي يجمع جده فيها زبل الحمام . تأمل الوجوه الصامتة التي تسكن عناقيد العنب المتكتلة في فروع التكعيبة الصاعدة من أسفل البيت . شبَّ على قدميه معتمداً بمرفقيه على حافة سور السطح . مد بصره إلى النخيل المترامي في الغيطان خلف الترعة .

كل يوم يقف هكذا على السطح حتى تعشى عيناه من جداول الضوء المنسكبة نحوه ، ويطن رأسه من السكون والهواء الملون بوهج الشمس الأحمر وزرقة السماء .

ظلل عينيه بحافة كفه متطلعا يساره إلى نهاية الطريق المحاذي للترعة . لا أحد . تأتي أمه لزيارتهم مرة في الأسبوع ، تلوح له من

بعيد نقطة صغيرة على الطريق.. تمشي نحوه . يطل رأسها من هبوة غبار بضوء الشمس ، ثم قدماها ، ويتأرجح وراءها ظلها الغامق بين كلاب الظهيرة . تمشي نحوه وحقيبة يدها ترتطم بساقها. يخمن في خضم سعادته ما في الحقيبة : القميص الذي تنام به في المدرسة في القناطر مطوي داخل كيس بلاستيك ، وبرتقالات قليلة . تخض الفرحة قلبه بشدة عندما تصبح أمه قريبة واضحة وترفع عينيها إلى السطح لأنها تتوقع أنه يقف هناك يتطلع إلى الطريق ولا يفقد الأمل . تبيت معهم ليلة الجمعة. يتكلم معها بالساعات عن أي شيء وتنصرف هي عن أي شيء منصتة إليه باهتمام شديد .

نظر الصبي أسفل البيت . في الناحية اليمني قرفص السند بجلابيته وفوقها البالطو الخفيف الذي لا يفارقه . أحاطت رأسه عصابة رمادية . اعتمد بظهره على جدار الكوخ الذي بناه في الخلاء بمحاذاة بيتهم .

بعد فترة نهض السند وعلى كتفه عصا غليظة معلق بها دلوان فارغان ، مشى بهما إلى منحدر في الشط ، وأخذ يملأ الدلوين من ماء الترعة العكر . عاد إلى موقعه وهو يوازن ثقليهما بمهارة مع خطوات قدميه العاريتين وقرفص أمام الصحون الفخارية التي

يبيعها ، بينما أخذ عياله الثلاثة يزحفون بذباب عيونهم إلى رقع الظل .

في شرفة الطابق الأول ظهرت جدة الصبي بثوبها الأسود المرسل الذي رسم خطاًا غامقاًا في ضوء النهار . انحنت بوهن ترفع قميصا يشر ماء من طست الغسيل ونشرته على الحبل. استدارت عائدة إلى الداخل وهي تسحب الطست خلفها .

يترقرق الماء في الترعة بطيئا عكرا و يتحرك سطحه بفروع شجر محطمة وعلب صفيح صغيرة فارغة .

مال بوجهه يسارا وألقى نظرة على الطريق . بان لـــه عصام الألفي أحد الأبناء الثلاثة للواء الألفي صاحب الفيللا غير البعيدة التي تربض الكلاب تحت أشجارها وقت الظهيرة. كان يتقدم نحو بيتهم مفعما بالثقة والغضب . وما أن شاهدته زوجة السند ذات الجسم الناحل والصدر الممسوح حتى لمت عيالها من على الأرض وجرجرتهم إلى داخل الكوخ . السند أيضا لمح عصام الألفي بنظرة جانبية ، لكنه تظاهر بأنه لم يبصره .

دق قلب الصبي ، وضغط بطنه إلى سور السطح وشب بأصابع قدميه ليتسع المشهد لعينيه ثم طاشت مشاعره في انتظار ما سيحدث.

زمِّ السند شفتيه وارتجفت عضلات وجهه وهو يركز بصره بإرادة فولاذية على الأواني الفخارية أمامه . دنا عصام الألفي إلى أن وقف أمام السند الذي تظاهر بانشغاله بتقليب صحن فخاري وهو يكتم رجفة كالكهرباء .

انفلت الصبي من وقفته وانطلق عبر باب السطح إلى السلم يطوي كل ثلاث درجات عتيقة بقفزة واحدة حتى وصل إلى الطابق الأول حيث يقيل جده . اندفع إلى غرفة جده ، وفتح بابها بجرأة ، ثم توقف بأنفاس مبهورة عند طرف السرير . حدق برهبة في وجه جده المتراخي تحت الناموسية . وسقط بصره على الإبريق الذي يواريه جده تحت حافة السرير لكي لا يغادر الحجرة إذا أراد التبول . ثم ارتفعت عيناه إلى آلة العود الملقاة مع منشة الذباب على كرسي قرب السرير . أحس الجد بأنفاس الصبي في فضاء الحجرة فانفرجت جفونه عن نظرة صارمة . سارع الصبي يبرر جرأته :

– السند يا جدي ! والنبي تلحقه !

تمتم الجد يبتلع ريق النعاس :

– عملها ثانية .. الصعيدي الحمار .

ارتد الصبي من الغرفة يطوي السلالم إلى السطح وقلبه يدق في صدغيه كالطبل .

الآن كان الألفي ينحني بجذعه كما في المرات الثلاث السابقة ليشد السند من شحمة أذنه بقوه آمرة لأعلى . تملص السند وتلوى جسمه في الهواء قليلا حتى انصاع مجبورا واقفا. انهال الألفي على صفحتي الوجه الأسمر المجدور بصفعات مدوية متلاحقة من كف واحدة متصلبة كالحجر . مال وجه السند يمينا ويسارا مع الضربات وهو يبذل جهدا يائسا للإفلات . ضربه الألفي حتى بض خيط دم دقيق من ركن عين السند اليسرى . أحس الصبي فوق السطح أن وجنتيه تلتهبان مع كل لطمة واندفع الدم إلى رأسه ، وجاشت روحه بالمهانة والخوف ، ودعا لليوم الرابع على التوالي أن يصل جده بأسرع ما يمكن .

نجح السند في التملص أخيرا ، وقعد على الأرض بلهوجة، وأمسك كما من قبل بأقرب صحن فخاري إليه يديره بأصابع مرتعشة أمام عينيه المحتقنتين في وجه معذب متهيج. أولاه الألفي ظهره بهدوء بالغ دون أن ينبس بحرف عائدا إلى الفيللا على نفس الطريق. وعندما تأكد السند أن الألفي ابتعد غطى رأسه كما في المرات السابقة براحة يده اليمنى وأطلق زفرة من صدره .

كان جده يصل متأخرا .. دائما ! ظهر وهو يعرج على عصاه فخرجت له زوجة السند من الكوخ وقدمت له الكرسي الخشبي

الوحيد لديهم . جلس وفرد ساقه اليمنى في ظل باب الكوخ . بعد لحظة قال جده :

– يا سند دول ناس كبار مالك ومالهم ؟ إذا كانوا أهانوك مرة فأنت تبرزت أمام مدخل فيلتهم عدة مرات . كفاية . لكن أن يستيقظوا فيصطبحوا بخرائك كل يوم قبل انصرافهم للعمل فهذا كثير؟!

لم يقل السند شيئا . دارى انفعاله بصياحه على امرأته بنبرة الجنوب الغليظة " الشاي لعم يوسف " . رجاه الجد وهو يرتشف الشاي : " عدني ألا تتبرز أمام باب الفيللا مرة أخرى " . أجاب السند " أهانوني يا عم يوسف . أهانوني جامد ".

صاح جده مستنكرا " أهانوك ؟! وخراؤك كل يوم حلو يعني ؟ ". طرقع السند بلسانه على سقف حلقه : " كل واحد وقدرته " .

ركز جده بصره لحظة على رأس السند ، وقام صامتا بيأس يعرج نحو مدخل البيت متذمرا لاعنا الصعيدي ودماغه الناشف . فوقف السند مقوسا كتفيه وراحتاه مبسوطتان لأسفل يصيح في أثره بنبرة عتاب : " أنت الخير والبركة يا عم يوسف. زعلت مني ؟ " .

ظل الصبي ملتصقاً إلى السور . مكث هكذا إلى أن ارتخت ذراعاه وأفرغت ركبتاه شحنة التوتر في رعدة . ألقى نظرة أخيرة على الطريق . كان السكون والحر يعتصران النهار والكلاب ترقد بضجر على جوانبها تزحر بحنك مفتوح . أخذ الهواء الساخن

يلطمه بدوائر براقة متوهجة ونقاط مضيئة بلا نهاية ، فلم يعد بوسعه التركيز على النقطة الصغيرة التي ستمشي نحوه وحقيبة يدها ترتطم بساقها ، النقطة التي ترفع عينيها إلى السطح لأنها تتوقع أنه هناك لا يفقد الأمل .

▫ ▫ ▫

اثنان

ودعته ودموعها عالقة برموشها ونظرة جزعة ملتاعة كأن سكين الفراق تمزق فيها الحب الأبدي . ثم نسيته إلى الأبد عندما أدارت إليه ظهرها منسلة بهدوء من باب الشقة .

كانت لديها عادة أن يكون وجودها كله هنا ، فإذا مشت خطوة للأمام أصبح وجودها كله هناك . لم تكن دموعها كذب، ولا نسيانها كذلك . بعد أسبوع كلمته من الإسكندرية .

قالت بدفء :

– يا حبيبي . لا تدري كم أشتاق إليك . أفكر فيك . بالأمس فقط رأيتك معي في المنام وكان حلما جميلا . (كانت صادقة في أنها رأته في المنام ، لكنها كانت تكذب بشأن الشوق) .

ارتجفت السماعة بيده وهو يلصقها إلى أذنه بشدة لكي لا تفوته نبرة :

– أين أنت ؟ ليتك تعرفين أي فراغ حل بعد سفرك . إنني أحبك . أحبك . (ربما لم يشعر بحبه الذي يتحدث عنه . كان الأمر مجرد اعتياد يفضل هو أن يسميه حبا وتفضل هي أن تقول إنه علاقة . كان منهكا من الحياة بدلا من الاستمتاع بها مثل كل الذين لم يحققوا شيئا يذكر ، لكنه كان تواقا إلى حبها، وإلى حياة عارمة بانفعاله بوجوده)

جاء صوتها يرن :

– قل لي ماذا تفعل ؟ كيف تعيش يومك ؟ احك لي كل شيء .

– ما من جديد . نفس الحياة . أستيقظ صباحا وأتجه إلى العمل . أعود . الآن بعد رحيلك أطبخ بطاطس ولحما وهو كل ما أحسن طبخه . أتجول في الشقة وحدي . وفي المساء أستأجر شريط فيديو من الأفلام العربية القديمة أتفرج عليه . (كان يدرك في هذه السن أن المشكلة ليست في أطراف خارجية ولا في إقامة علاقة حب أو حتى صداقة ، وأن المشكلة قابعة دائما داخل النفس ، وأن عليه إذا أحس الضياع الذي يقود خطاه إلى المقاهي ألا يتجه إلى الآخرين لكن إلى نفسه ليرى فيها من أين ينبثق الضياع وأين ينتهي)

قالت :

– لا تنس أن تسقي النباتات في البلكونة مرة كل ثلاثة أيام .

قال :

– لا أنسى . أسقيها وأسقى معها كومة ملابسي التي تراكمت منقوعة في الماء والصابون . منذ سفرك وأنا أبدل الماء في الطست كل يوم دون أن أجرؤ على غسلها . (كان التأجيل عادة أصيلة فيه . وكل ما فعله فعله متأخرا ، كان يصل إلى عمله متأخرا ، وإذا دُعي إلى حفلة ذهب متأخرا ، وحينما يستفزه ذلك كان يذهب مبكرا أكثر مما ينبغي . لكنه لم يفعل شيئا أبدا في وقته ، وكان قراره الارتباط بها مثل كل القرارات الأخرى .. متأخرا)

قالت :

– الجو في الإسكندرية بارد هذه الأيام لكني أتمشى كل مساء على الكورنيش . (فكر أن يسألها هل تتجولين بمفردك أم مع عزت ؟ لكنه تفادى ذلك) أمي بخير . لكني ندمت على سفري . (كان بصوتها ندم صادق ، لكنه ليس ندما على فراقه . الأرجح أن ذلك لأن بحثها عن عمل في إذاعة الإسكندرية لا يكلل بالنجاح رغم وعود عزت الكثيرة لها) . والحق أن الخجل يعذبني لأنني أحيا بلا عمل . أحس أنني عالة عليك. لكن كما ترى لا توجد فرصة عمل في القاهرة وأنت أعباؤك كثيرة .

قال لها بصوت أراده صادقا :

– كُفي عن التفكير بهذه الطريقة . أنت لم تكوني عالة علىّ أبدا . لقد أسعدت حياتي ووهبتني أملا فهل يقال عن ذلك عالة ؟ (كان في

واقع الأمر مستنزفا من الناحية المالية ، ولكن ليس للدرجة التي تجعله يستريح لانفصالها عنه)

اختفى صوتها برهة ثم عاد منصاعا كأنما لأنه ليس ثمة مكان آخر يتجه إليه الآن .

قالت :

– أنا أحبك . سأعثر على عمل في أي مكان .

قال لها :

– أنا أيضا أحبك . لقد وجدنا بعضنا البعض بصعوبة ، فلا تفرطي في حبنا . واعلمي أن كل حب مختلف ، وما من حب يشبه الآخر ، كل حب يشق طريقه بشكل خاص به . (لم يكن يعي وهو يقول ذلك أنه يحاول أن يجد تبريرا لفتور العلاقة) أنا أحبك أنت تعلمين ذلك. ولا أستطيع أن أحيا من دونك . (كان يكذب في ذلك . كان يعلم أنه يستطيع الحياة من دونها ، لكن الحياة معها كانت أهون من الوحدة الكئيبة)

قالت :

– أنا أيضا أحبك . (لم ترد إلى ذهنه في هذه اللحظة العبارة التي قالتها له يوما " الحب كلمة اخترعها الذين لا يريدون أن يدفعوا مقابل الحب . هناك مجرد علاقات جيدة أو علاقات سيئة ") احك

لي بالتفصيل ما الذي تفعله يوميا .. احك لي من فضلك . أنا مشتاقة لسماع صوتك .. قل أي شيء .. أي شيء . فقط تكلم .

قال لها :

– زارتنا صفاء أول أمس وقالت إن مجدي أرسل خطابا يؤكد فيه أنه لم ينسني وإنه يفتش لي عن عقد عمل في الكويت رغم أن الفرصة تتضاءل . (كان ثمة شعور لديه بأن مشكلته كلها هى عجزه عن شراء شقة في حي نظيف وتأثيثها كما يليق . كان يعتقد أن المرأة تهوىفي أغلب حالاتها وسائل الراحة . لكنه لم يكن يعي أنه إلى حد ما على استعداد للتضحية بعلاقته بها إذا واتته فرصة وحده . وكانت بدورها تحس – ولا تصارحه – أن تعلقه بها قائم ولكن ليس بتصميم إلى النهاية).

جاءه صوتها :

– لا تقلق سيأتيك عقد العمل بإذن الله . (كانت تدرك أن تلك المشكلة ليست كل ما يسوقها إلى الإسكندرية والالتقاء هناك بعزت بحثا عن عمل . ثمة شيء آخر أيضا، ربما شعورها الذي يطفو ثقيلا أنها لا تحس بالطمأنينة معه ، لأنه في أغلب الأحوال نهب لوساوس وظنون صغيرة تسعى كالظلال تلتهم شعوره بمتعة الوجود. مع ذلك فإنها لم تتمكن أبدا من تفسير ما يشدها إليه بقوة ، ولا أصل

مشاعرها المتضاربة التي تتأرجح بحرية متضاربة منجذبة إلى بعضها في مجال واحد) .

قال :

– سنكون معا ولن نفترق أبدا .. إذا واتتنا الفرصة . ولن أدعك تسافرين إلى الإسكندرية أبدا . (كان يظن أن بوسعه تنظيم حياته ، بل كان يثق في ذلك . لكنه لم يدرك أنه يحيا في وهم ، وأن شيئا مما ينشده لن يتحقق ، لأن السنوات في عبرت من جانبه دون أن ينتبه إليها)

انتهت المكالمة . وانقطعت أجراسها لمدة أسبوعين ، كان خلالهما ينقض على سماعة التليفون بلهفة عند أي رنين آملا أنه صوتها .

نام وصحا بعد منتصف الليل على صوت بعيد لباب يفتح فظن أنها رجعت ، رمى الغطاء عنه ووثب من السرير بقفزة واحدة ، ومشى يتخبط نحو باب الشقة ، فلم يصادف سوى فراغ معتم عند الباب الموصد . تراجع نحو الصالة وأشعل الضوء وجلس هامدا . في هذه اللحظة دق جرس الهاتف فخرجت روحه مع الرنين ملهوفة إليها :

– أين أنت ؟

وشوشة خافتة جعلته يتوتر . ثم صوتها منخفضا يبكي مغلقا كالأنبوبة على عذابه الخاص كأنها لم تعد تأمل في شيء .

علا صوته بشحنة القلق :

– ماذا بك ؟

– لا شيء . لكن أحدا لا يفهمني وكل ما أقوم به يراه الآخرون خطأ. أنا نفسي لم اعد أعلم ما الذي أريده .

أطلق حرارة قلبه كلها في صوته :

– عودي . ما من شيء يمكن أن تفعليه هناك . (أحس أن شيئا مفاجئا طرأ على علاقتها بعزت ، صدمها وأجرى دمعها) .

اختفى رنين أجراسها لثلاثة أسابيع ، وأخذ في الأيام الأخيرة يهبط بعد السابعة مساء – موعد وصول قطار الإسكندرية – ويتسكع أمام باب العمارة فترة ، مرسلا بصره إلى نهاية الشارع . لكنها لم تظهر. كأنها لم تكن موجودة أبدا .

ودق الجرس مرة بعد أن أطبق اليأس على مشاعره وأحاطها بسطح سميك دفاعا عن النفس . تواثب صوتها الآن بفرح وتصميم :

– إني قادمة .

راحت مشاعره تنقر السطح الخارجي السميك لتنفذ منه :

– صحيح ؟ .. فعلا ؟

– نعم . أيا كان ما سيحدث أنا قادمة . سأهاتفك غدا لأخبرك بأني اشتريت بطاقة العودة بالقطار .

أضافت بنبرة من تؤثره بسر خاص :

– كنت أبحث عن عمل فلا تكن غاضبا مني . (لم تكن تبحث عن عمل فحسب ، هو وهي يعلمان أن الحقيقة غير ذلك) .

نطق شوقه الكامن :

– أنا في انتظارك . لا تتصوري مدى فرحي .

هتفت بعزم :

– سألقي كل شيء وراء ظهري . سنعيش معا في الشقة الصغيرة مع والدتك إلى أن تتبدل ظروفنا . ربما يأتيك عقد العمل ، ربما أجد أعملا في القاهرة . من يدري ؟ أنا أحبك . انتظر مكالمتي غدا .

أية حياة بعثتها في روحه كلها ؟

اختفى صوتها شهرا . ثم اتصلت بنبرة قطة يائسة تحت جدار بارد:

– الأرجح أنني لن أستطيع الرجوع إلى القاهرة . اشتريت بطاقة السفر فبكت أمي ، وناشدتني البقاء إلى جوارها . سأكتب لك خطابا مطولا قد يصلك خلال أسبوع .

قال :

– طيب . (أدرك أنها تضيع منه ، وأنه لم يملكها أبدا) سأنتظر رسالتك . (في هذه اللحظة كان يفكر في ابنة عمه المطلقة قائلا لنفسه إن عليه أن يتخذ خطوة لتغيير حياته نحو الاستقرار) .

قالت بصوت مذنب بين التساؤل والوداع :

– سلام ؟

– سلام .

اتسعت شروخ في روحه . وعزى نفسه بأنه طالما عاش في وحدة، وعليه الآن أن يتماسك في مواجهة ذلك .

الآن هي جالسة على شاطئ في الإسكندرية ، تندهش عيناها الواسعتان الضاحكتان لكل شيء ببهجة رقيقة . نسيته تماما . هي الآن غارقة حتى أذنيها في فرحتها بعزت . تتجول على الكورنيش ذراعها مشبوكة بذراعه ، يستقبلان معا رذاذ مطر خفيف ، فترفع هي رأسها لأعلى كعادتها مغمضة عينيها وقد قلبت راحتيها إلى السماء . (لم يكن ذلك صحيحا . على العكس كان أغلب وقتها ينقضي داخل بيتها هناك ، وشعور خانق يمسك بها بأنه لا معنى لشيء ، أي شيء في العالم ، وأن عليها أن تغير حياتها بصورة حاسمة . مع ذلك من يدري ؟ ربما كانت تجد وقتا للتجول تحت المطر والجلوس ساعات على الشاطئ ؟) .

عندما قاربت الساعة الثالثة فجراً اتكأ بمرفقيه على حافة نافذة الصالة يتأمل الشوارع الساكنة ويدخن . أحس ببرودة الفجر فجلس على فوتيه وترك ظهره يسقط على مسنده كشيء تهدم. ارتخت كفه فوق فخذه بسيجارة مشتعلة ، وخامره شعور بأنه عاجز عن رفع السيجارة إلى ما بين شفتيه . كان ضوء اللمبة يبهت في نور الصبح

الذي يغشى المكان . كان مستعدا أن يغفر لها ولنفسه كل شيء على أن تعود .

واجهته الآن عيناها الواسعتان المرتبكتان ، وكاد أن يشعر بأنفاسها تلفح وجهه . عذبته الرغبة في أن يفهم – ما الذي تعنيه بالضبط – هذه النظرة الرقيقة الشاردة ؟

▫ ▫ ▫

نقطة عابرة

امتلأت المقاعد في صالة المسرح العريق . ووقف البعض في الممرات متململاً يفتش بعين يائسة عن كرسي شاغر بمعجزة في حفلة تُحجز مقاعدها ببطاقات محددة الأرقام قبلها بزمن .

تألقت الصالة متوهجة تحت نور المصابيح وسرى في جوها طنين لغط مرتفع. اتجهت نظرات الجالسين إلى ستار المنصة المنسدل من القطيفة القرمزية الداكنة ، وعجوز فاحم السواد برأس أشيب يقود المتأخرين مهرولين إلى كراسيهم بين الصفوف.

لا يُوزع برنامج الأغاني في هذه الحفلة . إنه مفاجأة كل مرة . أنت تعلم فحسب أنها ساعة بالحياة وما فيها ، تهبُ السلطانة خلالها المتيمين بصوتها لحظات تنزع الروح من البدن وتعلو بها بعيدا . في حفلاتها كان بعضهم يرتجف باكيا من الانفعال ، آخرون يثبون من مقاعدهم طربا وفرحا من نشوة عارمة ، غيرهم يسند ذقنه إلى قبضة يده ويتنهد سارحا .

وهذا أنا هناك ، أجلس في المقعد الثالث من الصف السابع ناحية الممر . نعم . هل رأيتني ؟ . بجوار ذلك الرجل البدين يتقلقل في كرسيه ينشد أفضل وضعية للجلوس، بالقرب من شابة تناهز الثلاثين تتطلع إلى مرآة صغيرة أخفتها في يدها . عن يميني شخص قلق ، يتلفت إلى الوراء كل لحظة ويجيل عينيه في الصفوف الخلفية يستوثق من أن الآخرين منفعلون مثله ، تكلمه سيدة وقور ولا يصغي إليها . الآن هل لمحتني ؟ أصارحك بأن ظروفي لم تكن تبيح لي الحصول على بطاقة في تلك الحفلة لكنها هبطت على بالمصادفة إذ هاجمت أزمة ربو زوج عمتي . كان ضابطا كبيرا في الجيش ، ولم ينجب ، فاعتبرني في محل ولده لأنني كنت أظل واقفا – عند زيارته لنا – خافض الرأس لا أجلس أبدا إلا بعد أن يستريح هو على مقعده فيمتدحني : أنت شاب محترم . هكذا بدأت علاقتنا . لهذا حصلت على البطاقة ، وها أنا أرسل بصري إلى المنصة منتظرا أن تخفت أنوار الصالة وتشرق كوكب الغناء .

أخذ ستار القطيفة القرمزية بشرائط القصب المذهبة اللامعة ينفتح على مهل. تسمرت العيون إلى المنصة وساد الصالة صمت الترقب وسكونه . تعاقب الموسيقيون من الجهة اليمنى. دخل عازف القانون الأصلع البدين ، والعواد بنظارته السوداء ، ثم عازف الناي بملامح وجهه الدقيقة المهذبة ، وعازف الشيللو الذي قعد واحتضن

آلته الضخمة بصمت . تتابع عازفو الكمان ، ومن بعدهم قارعو الدفوف . قاطع ظهورهم تصفيق من هنا وهناك ، ثم اصطف طاقم كورس من نساء ورجال . أشار الرجل القلق عن يميني كأنما يحدث نفسه لمقعد عواد شهير ظل مكانه شاغرا بعد رحيله .

دقيقة وهلت بعدها كوكب الغناء في فستان وردي فاتح غير محبوك يهبط إلى قدميها ، طُرزت فتحة صدره بحبات ألماس صغيرة تتلألأ . شعرها الأسود ملموم للخلف كعكة مدورة ، وقرط من اللؤلؤ يتدلى من أذنيها . تهادت مبتسمة وهي ترفع ذراعيها لأعلى قليلا . نهض الحضور كله واقفا للصوت الذي حلق عبر كل الأزمنة . ارتفعت الأيادي تخلخل الهواء بتصفيق مدو، والسلطانة تسير إلى حيث مسقط الأضواء الكاشفة . هناك أحنت رأسها قليلا . وتجدد التصفيق كالرعد حتى شبع الجمهور من علامات الامتنان على وجها فعاد إلى الكراسي وهو يتطلع إليها بشغف مسحور . الآن بوسع كل منهم أن يملأ عينيه بالأسطورة ، وإن كانت بعيدة المنال . ظلت تختبر صبر محبيها بصمتها برهة ، وحين ساد سكون مطبق في الجو اهتز طرف منديلها المعصور في قبضة يدها اليسرى إشارة للموسيقيين بالبدء .

يا الله ! بدأ التخت يدندن فاندلعت الأكف بالتصفيق ولمعت العيون . انجرف الجميع مع نمنمات إيقاع الرق والكمان الشجي .

رحت من مقعدي في خضم البهجة أحدج إلى وجهها أحاول أن أتبين قسماته . تلك مرة لن تتكرر، فإذا لم أبصر عينيها الغائمتين الآن ، فلن أشاهدهما أبدا .

انخرط التشيللو والقانون والناي فى العزف، وتمايلت السلطانة قليلا ، ثم أطلقت آهة محرقة جاوبها الجمهور بآهات . ارتدت للخلف بعنقها ورفعت رأسها بكبريائها المعهودة . غابت نظرتها في الفراغ تحت قبة المسرح . باعدت ما بين ذراعيها مفرودتين في الهواء ، وصمتت كأنها تبتهل وتستحضر سرها الخاص من أعلى . ثم اندلع صوتها قويا يقبض على كل نسمة هواء في الجو . أنشدت : " أنا قلبي معك .. مهما جرى .. قلبي معك " أنشدت من مختلف طبقات صوتها الذي لا يخطئ . تندفع إلى الأمام بصدرها في لحظات الذروة ، وترتد ثانية تهز رأسها بخفة تحت ألق الأضواء ببسمة اعتزاز . تقف الصالة كلها محمومة وأكفها تلتهب ، بينما يعم الصمت بين العازفين كأنهم تحجروا في مقاعدهم من ألف عام.

في تلك الأثناء كانت كاميرات التسجيل تتنقل بين المنصة ووجوه بعض الجالسين ونشوة الغيبوبة على ملامحهم . كنت سعيدا ومأخوذا، لكن سيطرة الصوت والنغم التي لا تقاوم كانت تبعث في نفسي قلقا خفيفا من سطوة تحلق وحدها بلا نهاية . استعاد

الحاضرون السلطانة مرة واثنتين وعشرين مرة بالصفير الملتاع والتصفيق والتأوه ، فأغدقت عليهم نعمها مغردة بأريحية وكرم .

* * *

هذا أنا هناك ، أجلس في المقعد الثالث ناحية الممر . ولكنك لن تتعرف إلى فقد انقضى على تلك الحفلة أربعون عاما ، ولم يبق من الفتي النحيف ابن العشرين ذي النظرة المستقيمة الطاهرة سوى كهل بدين مصاب بتمدد في الرئتين يلهث وهو يصعد الدرج . ولم يبق من الحفلة المبهجة سوى البطاقة القديمة صفراء خفيفة كالرماد وذاك التسجيل الأبيض والأسود الذي كانت قنوات التلفزيون تبثه أحيانا بعد برامجها المسائية.

أجلس وحدي في فسحة الشقة . زوجتي تغط في نومها . أمامي على المنضدة صحن به قطعة جبن بيضاء صغيرة وربع رغيف . أفتح التلفزيون وأتنقل بين القنوات . يفاجئني ذلك التسجيل القديم كأنه صورة تترقرق تحت سطح الزمن . يدق قلبي بسرعة ، وتندفع الدماء إلى بدني ، وأحس أني مشحون بالرغبة في القيام بأعمال جليلة ، متأهب لأشياء لا أدري ما هي . أتابع الحفلة وأبحث عن صورتي. لم تتوقف كاميرات التسجيل عند وجهي . أفتش بعيني عن الصف السابع ، أحصي الصفوف وهي تمر وأجده ، وحين تبدو

رؤوس الجالسين من أعلى نقاطا صغيرة سوداء وبيضاء أشير لنقطة صغيرة تعبر بينها وأقول لنفسي : هذا أنا.

بعد أن كنت أنام بعمق ، صرت أستيقظ هكذا ما بين الثالثة والرابعة فجرا . أظل قاعدا على سريري في العتمة والسكون وقد شبكت يدي أمامي على البطانية التي تغطى ساقيي. أتنفس بهدوء لكي لا اقلق زوجتي . لا أفكر في شيء معين . تتراءى لي في الظلام صالة المسرح متوهجة كالشمعة ، وعيون الجالسين تلمع وهم يتبادلون ابتسامات الحنان وضغطات الأيادي الخفيفة . هل اختفى كل ذلك أم أن الصالة مازالت تحيا في العمق تحت سطح عالم آخر ؟ . لاحقتني صورة التسجيل ، فكنت أذرع فسحة الشقة الصامتة الباردة وحدي . أنظر إلى ساعة الحائط ليلا . أتمهل قليلا عند النافذة على يميني حيث لا يتسرب أي صوت أو ضوء . أتسمع رجع الهواء بين الأشجار العارية بوق تنفخ فيه مئات الأصوات بنفس واحد من الصالة القديمة .

اليوم ارتديت ملابسي ، وتعطرت . خرجت وأخذت أسير من دون هدف إلى أن وجدتني أمام مبنى المسرح القديم في شارع عماد الدين . توقفت ، ورحتُ من على الرصيف أتأمل المبنى المهمل . تراجعت للخلف خطوتين . رفعت عيني إلى يافطة الإعلان الضخمة المعلقة . تهرأ ورقها من التراب والمطر وتلوت أطرافه في الهواء .

قطعت ممرا مستطيلا يفضي إلى مدخل المسرح . توقفت أمام الباب المكسو بجلد بهت لونه الأحمر . دفعته فانفتح على مصراعيه وخرّ من أعلاه تراب خفيف . دخلت إلى الصالة التي سكنتها رائحة الغبار . سرت محاذرا في الممر بين الصفوف . غاصتْ قدمي في حفر تحت البساط المفرود المنسول . رأيت المصابيح محطمة مغبرة في أماكنها ، والأبواب الجانبية منحنية إلى الأمام بعد أن تخلعت مفاصلها ، جلود الكراسي مشققة . تطلعت إلى المنصة كان الستار مضموما على الجانبين انطفأت فيه لمعة شرائط القصب.

وهذا أنا أجلس في المقعد الثالث ، أحاول أن أرهف السمع لصوت الذين ينفخون في بوق واحد بين الأشجار العارية .

لحظات وظهرت السلطانة من الجهة اليمنى . كانت تدب منهكة وخشبة المسرح تصر تحت وطأة قدميها . خطت بتثاقل إلى أن بلغت وسط المنصة . تجمدت مكاني . انعطفتْ نحوي ومدت رقبتها . رأيت عينيها المفتوحتين واضحتين تحدقان فيّ بعتاب . رفعتْ ذراعيها لأعلى بجهد كبير. مكثت لحظة صامتة وبصرها مرسل إلى قبة المسرح ثم فتحت فمها دون صوت . قرأتُ حركة شفتيها همسا ضعيفا: " قلبي معك .. مهما جرى " . مالت بعنقها نحوي . حدجت في وحركت شفتيها بفم خال من الأسنان : " قلبي معك " .

أردت أن أقف لأغادر المكان على وجه السرعة . هممت بالنهوض ، لكني لم أشعر بساقي ، كأن فراغا قد طوى نصفي السفلي كله .

▫ ▫ ▫

موج أبيض

رجعتُ إلى البيت ووجدتها في الصالة جالسة على الأريكة وقد ضمت ساقيها تحتها. كانت تدعك رأس قطتها الصغير وتلاغيها بغمغمة حانية. حين انتبهتْ إلى أني أقف بمنتصف الصالة رفعتْ إلى عينين ثملتين بسعادة عميقة . وصوبت قطتها البيضاء نحوي نظرتها الفاترة التي تنظر بها عادة إلى كل ما حولها . شيء ما استوقفني . ربما لأني كنت حين أرجع إلى البيت أجدها مشغولة في العادة بطبخ أو كيّ ملابس ، وقلما طالعت نظرةً كتلك مشبعة برضاء أسبابه مجهولة المصدر . خامرني شك دون سبب أو هدف واضح .

سألتها إن كان أحد زارنا ؟ فنفت بهزة سريعة من رأسها ثم نهضت وهي تطوى لمعة سعادتها في غور عينيها ، وآبت إلى حالتها الاعتيادية . لا يحق لي أن أعتبر سعادتها ذنباً ولو كان باعثها غير مفهوم .

بعد يومين كنت بغرفة النوم أتقلب على جنبي في قيلولة الحر حين شاهدتها من بين جفوني جالسة على المقعد المنخفض أمام المرآة البيضاوية ، ظهرها لى مستغرقة في تأمل نفسها . بم يمكنني اتهامها في جلستها هذه ؟ بأن لها عالما آخر يخصها مخفياً بعيداً عني ؟

في الأيام اللاحقة صرت أفتح باب الشقة أدلف إلى داخلها بهدوء بالغ . ثم خطر لي ما هو أسوأ : فرجعت من عملي يوم الخميس مبكرا عن موعدي ، وفتحت باب الشقة بحرص. كانت واقفة في البيجاما وسماعة التليفون على أذنها ووهج انفعال يلفح وجنتيها . ذكرني وجهها المشع بأوائل علاقتنا . لم ترتبك تحت وطأة نظرتي ، وواصلت حديثها بتماسك . جذبت السماعة من يدها بقوة وألصقتها إلى إذني. وصلني صوت رجل يطلق ضحكات قصيرة بين كلماته . وضعتُ السماعة . أحنتْ رأسها قليلا ثم كسرتْ عينها على فتور وهي تنظر إلى كأني تجاوزت حدودي .

جلستْ على مقعد واستسلمتْ لخواطر مجهولة وعيناها غائبتان في نقطة غير محددة من جسم القطة التي رقدت ببطن منتفخة . لم تعد تشبه المرأة التي عرفتها من قبل . مكثت متجمدا في مكاني لحظات ألاحق ما يتهدم في داخلي حتى لم يبق بين ضلوى سوى فراغ أسود. لم أعد أنا أيضا أشبه نفسي . حط علىّ شعور ثقيل كئيب.

ماءت القطة وانزلقت بنعومة من فوق الأريكة إلى أرض الصالة. عندما لا مست الأرض قوست ظهرها لأسفل ومطت بدنها ثم مشت بتثاقل . قاربتني وهي في طريقها إلى المطبخ وحكتْ جنبها في ثنية سروالي فلم أشعر إلا وطرف قدمي يركلها وهو يغوص في بطنها . طارت قليلا في الهواء واستقرتْتْ بعيدا تمؤ بصوت حاد مسددة إلى نظرة متربصة من عينين ضيقتين.

لم أقل لها ولا كلمة . ولم أقم بشيء . كنت فقط بحاجة للانفراد بنفسي ، فخرجت أتسكع بقية اليوم في الشوارع . دخلتُ إحدى دور العرض وجلستُ هناك لا أسمع ولا أرى ، وأسلمني الصمت . العتمة التي تخللها ضوء الشاشة المتقطع لشعور منطفئ .

كان لقاؤنا الأول مصادفة . كنت أقول لها فيما بعد " يوم الثلاثاء " فتضحك باستنكار " الأحد .. لا أنساه " . كانت السماء غائمة بسحب متداخلة بلون الحليب وأنا عائد من عملي بالمطرية . وتحت كوبري النعام بدأت السماء تجهش بأمطارها دون توقف ، وخلت الشوارع من المارة إلا من عدد قليل كان يقطع الطريق جريا ويحمى رأسه بورق الصحف . خيل إلى أنه لم يعد من أحد سواي داخل سيارتي الصغيرة وحدي أتلقى الهواء الرطب المنبعث بقوة من فوق الإسفلت المغسول . بعد الكوبري بقليل رأيتها واقفة بمفردها تحت سقف

محطة أتوبيس في فستان أبيض منقط بزهور بنفسجية كبيرة . بدت لي في هذا الجو الغائم كأنها هبطت من زمن آخر.

دون أي تفكير وجدتُ قدمي تضغط على فرامل السيارة بقوة لأتوقف أمامها بالضبط. فتحت لها الباب وأنا أميل ناحيتها . خرجت من تحت سقف المحطة بابتسامة وجلست قربي ببساطة كما يهبط الضوء من أعلى دونما حذر أو شك .

صرنا نلتقي كل يوم تقريبا عند نفس المحطة ، وأطلقنا عليها فيما بيننا اسم " محطة المطر " . لم تفارقها هذه البساطة ونحن ننهي إجراءات الزواج ، ونستبدل بسقف المحطة سقف الشقة . ظلت جميلة أول كل صباح وهي تصحو ، وظهرا حين تعد الطعام ، وفي المساء . وكان جمالها يتلون كالفصول . في الليل فاضت حبا حتى أنني قلت لها ذات مرة : " أنت تشبهين العدالة " . ضحكت بنقاء وسألتني : " وكيف هذا ؟ ألستُ مثل كل النساء ؟ " . قلت : " كلا. أنت لا تشبهين أحدا ، لأنني في كل مرة أكون معك أشعر أن العدالة تنصفني وتعوضني عن كل المظالم الصغيرة" . ضحكت واحتضنتني فغاب وجهي في شعرها . قالت : " هيا نأكل شيئا " . رحت أقطع البسطرمة في المطبخ لنحمرها والقطة تدور بين أقدامنا . سألتُ نفسي : " لماذا تهب علينا السعادة متفرقة دون أن تتجمع في معنى واحد كبير؟ "

تخبطتُ طويلا في الشوارع ذلك المساء ورجعتُ مرهقا . تخيرتُ لنومي حجرة أخرى . ولزمت هي غرفتنا فلم تخرج منها . أفقت بعد وقت على قطتين صغيرتين تلجان حجرتي من فرجة بابها الموارب. سارتا نحو سريري دون أدنى صوت . أول ما ورد على ذهني وأنا أرفع رأسي أن القطة الأم وضعت قططها . دفعت الغطاء بقدمي ونهضت . قبضت على القطتين من رقبتيهما وأنزلتهما وراء باب الحجرة. بعد لحظات رأيت خمس قطط أخرى يمشين نحو فراشي . قمت وقفشت اثنتين منهن وتركتهما خارج الحجرة ، رجعت ، وقبل أن أمسك بالبقية ، رأيت الاثنتين ترجعان نحوي بهدوء ومن خلفهما موجة وراء أخرى من القطط البيضاء . وقفتُ في منتصف الحجرة أغترف من القطط بيدي وأرميها إلى الخارج ، فيرتد الموج الصامت الأبيض طافياً من جديد . لم أعد قادرا على زحزحة قدمي وسط قطع اللحم النيئة التي ملأت الحجرة لخوفي من المواء الحاد . تشبثتُ بفكرة أنها مجرد قطط لكي لا يشلني الرعب، وأخذتُ فترة أمسك بها وألقيها للخارج حتى تسرب ضوء باهت إلى المكان فتلاشت العتمة الداخلية من سطح الجدران . تلفت حولي وروحي ترجع إلى وأدركت أنني قطعت الشوط الأكبر إذ لم يبق في الحجرة سوى قطتين، رفعتهما في الهواء بكفي وألقيت بهما وراء الباب وأغلقته بيد مرتجفة وحشرتُ منشفة كبيرة تحت عقبه . لابد أن

القطة وضعت عددا ضخما. رحت أنفضُ شعر القطط العالق بأطراف أصابعي ، لكن كل شعرة أنفضها كانت تتقلب على الأرض إلى قطة تجري . قلبت يدي أتفحصهما فلمحت تحت أظافري شعيرات كلما نترتُ بعضها تساقطت قططا تملأ الحجرة وتزحف تحت السرير وتختفي كأن تحته نفقا يفضي إلى جهة أُخرى .

قررتُ أن أغادر الحجرة . فتحت الباب وقصدت الصالة. رأيت القطة الأم مستلقية وحدها على الأريكة ، تلعق خيطا رفيعا من دم تخثر على بطنها . لحستْ لسانها ثم توقفت ونبضت أطراف شواربها. وومض نحوي شعاع أحمر من حدقتيها الضيقتين . رأيتُ نظرتي وهي تنكسر على سطح عينيها الحمراوين فطاش شيء في إدراكي . هرولتُ أفتح باب الشقة لأستعين بحارس العمارة وامرأته في تنظيف الشقة. لكني فوجئت بالهدوء الذي يخيم على العمارة وأن أبواب الشقق كلها مفتوحة على مصراعيها . لم أجد الحارس مكانه . خرجتُ إلى الشارع فرأيت القطط الصغار تسده ، والناس يهربون ، وما من ثغرة لقدم . عدوتُ مع من عدا . كان الرجال يجرون بالبيجامات والنسوة بقمصان نوم داخلية شبه عاريات . كانوا يندفعون إلى الأمام إلى أن تجمعوا في ساحة قريبة وهناك راحوا يغسلون أياديهم من شعر القطط تحت صنابير ماء عمومية ، ووقف البعض منهم تحت الماء عاريا كما خلقته أمه يتطهر دون جدوى .

شاع في الساحة أخذ ورد وضوضاء وخوف ، وهدأت نفسي قليلا حين أدركتُ أنني لم أكن وحدي فيما حدث ، فلم يعد الأمر مخيفا . لكن إحساسي بلزوجة لحم القطط الغض وشعراتها اللاصقة ببدني لم يفارقني . فجأة أطل علينا رجل عارٍ اعتلى قطع أثاث تكدست في ركن، ولوح بيده وهو يصيح أنه اكتشف دواء للجميع . ورفع الكل أعينهم بلهفة إليه ، فقال:" لابد للإنسان أن يمرض فيعرق ثم يرشح عرقه كله من بدنه " .

كان يتكلم وخيوط العرق تنسال على جسمه العريان . أضاف : " ولابد أن يصب العرق ليصبح بحيرة صغيرة تحت قدميه شرط ألا يلمس أحد الماء المتجمع ولا حتى الشخص نفسه " . حدقنا بأبصارنا إلى بقعة ماء تتراكم وتتسع تحت قدميه . هتف : " انظروا " . كان بدنه يستعيد هيئته النظيفة أمام أعيننا وجلده يلمع بمظهر البشرة الصحية من جديد . آمن الجميع بما قاله . لكن أمواج القطط البيضاء كانت تطفو كالزبد على الإسفلت منذرة بإغراق كل شيء . داهمنا شعور ثقيل بأننا في سباق مع الزمن . وفي هذه اللحظة تدافعت نحونا جموع فاغرة أفواهها من حلوق الشوارع ومن العمارات الشاهقة ، تعدو قابضة على أيدي أطفالها . ولم يكن أحد مهتماً بما تركه خلفه سوى رجل تسمر يشد إلى الخلف امرأة بدينة نصف عارية وهو يلطم صدغه صارخا : " تعب عمري كله هناك " .

فكرتُ بسرعة ولم أجد وسيلة لكي أعرق وأشفى أفضل من الدخول لأحد البيوت المهجورة بحثا عن قرص أسبرين منسي . دخلت بيتا وصفقت بابه خلفي ، لكن طرقات مقارع هائلة كادت تخلع الباب قبل أن ألحق بيدي المرتعشة بابتلاع قرص الأسبرين . تواريتُ مرتعدا وراء ستارة النافذة ، فأبصرت من فرجتها كائنات لم أتعرف إليها تزاحمت على الباب بأقدام كأقدام البشر وعيون ضيقة وأبدان يهيش منها شعر القطط . وقفت تمؤ مواء جماعيا مرعبا وهي تهز بأياديها هروات ضخمة تقرع بها الباب ثائرة . وعلى مبعدة حامت فرق أخرى تتحرك بالهروات قرب البيوت لنهب ما فيها .

تلاحقت أنفاسي مكروبة خلف الستارة ، وحط سقف فولاذي على حركتي فتحجرتُ مكاني . تلفتُ حولي بأمل أخير ، فشاهدت غير بعيد عنى امرأة تقف في الظل ، شجعتني بنظرة تأييد حار أن أدفع المقاعد خلف الباب لكي لا ينهار تحت وطأة الضربات الساحقة . هبطت بنظرى إلى أسفل فرأيت قرب قدميها قطة صغيرة بيضاء تتطلع إلى .

◘ ◘ ◘

نبضة

عاد الطبيب برقبته إلى الخلف وأطلق زفرة مستريح :

– نعم . قلب صغير .

اندلعت النبضة الضئيلة على الشاشة تصارع ما حولها من ظلام . لطمت بشدة المحيط الأسود ، فترنح الظلام وانحسر ، وما لبث أن استجمع قوته وأطبق حانقا على النبضة فاعتصرها حتى أوشكت أن تختفي . وفجأة جدد القلب الصغير ضرباته بعنف .

نهض الطبيب يتحسس بأصابعه سطح المكتب بحثا عن علبة سجائره :

– منذ أسبوعين لم نكن نرى سوى بقعة سوداء . الآن ظهر لنا قلب. صغير حقا لكن قلب.

مال حمدي إلى الأمام في وقفته خلف الطبيب واعتمد ببطن كفه اليسرى على حافة مقعده . أحنى رأسه إلى مستوى كتفي الطبيب

وثبت بصره على الخربشة الدقيقة المتموجة . أيعقل أن هذه البقعة الأقل حجما من علبة ثقاب قلب إنساني ؟

– أ هذا قلب ؟

– ليس قلبا بالضبط . إنه كيس للقلب يضخ الدم فيتفرع القلب بداخله ويتفتح . هذا أول التكوين.

تسمر حمدي مكانه يحدق في ابنته قلبا صغيرا جدا بحجم نقطة عمياء في الكون ، تخوض وحدها كفاحا ضاريا ولا تعي أنه واقف على مقربة منها . اعتدل في وقفته متململا ، واستنجدت نظرته بعيني نوال التي مالت على جنبها فوق سرير الفحص ، واشرأبت برقبتها تحدق في صورة الجنين، كانت روحها مخطوفة من عينيها إلى حافة عالم جديد مجهول.

ضحك الدكتور أنور لحمدي :

– سأعطيك هذه الصورة للذكرى .

ضغط على زر فخرجت من أسفل الجهاز ورقة صغيرة مطبوعة عليها خربشة الخطوط المتداخلة . أمسك حمدي الصورة يسأل نفسه: كيف لقلب لم يكن أن ينهض هكذا من العدم ؟ ويحز لنفسه كياناً من وشائج اللحم والدم معلنا عن وجوده ؟ قلب من هذا ؟

نهضت نوال غائمة الوجه . خرجا من العيادة . هبطا على السلم الضيق بسقفه المنخفض ، تقدمت نوال وكف حمدي مفرودة في الهواء خلف ظهرها .

كانت العاشرة مساء وهما يقطعان الزقاق الصغير على مهل . سارا معا يدها في يده بين أكوام القاذورات المرتفعة على الجانبين . كانت ثملة لا تكاد تصدق أنها حامل . اتكأت إلى ذراعه ثم استدارت تواجهه وغمغمت :

– أتعرف ؟ نفسي في سمك .. أي سمك .. مقلي .

اتسعت حدقتا عينيها تتطلع إليه كأنها تستفسر منه عن شيء آخر تماما لا علاقة له بالسمك .

أجابتها نظرته مرتجفة :

– سنشتري السمك .. كل السمك الموجود في كل المحلات .

قالت له :

– كنت أود لو أسكن مكانا كهذا . الناس هنا يعيشون معا . تنطلق النكتة من دكان في أول الزقاق فيضحكون لها من شرفة آخر بيت .

أجابها :

– قد يعجبك هذا في البداية لكنك سرعان ما تتعبين .

انعطفا يمينا وخرجا إلي ناصية الشارع الكبير بضجيجه وأضوائه. تمهل يلف ذراعه حول خصرها وقال :

– فلنستقل تاكسي .

رفعت رأسها إليه وغمره حنان من صوتها :

– لماذا ؟ هاهي محطة الأتوبيس قريبة .

قطعا عدة أمتار نحو المحطة ، وهناك وقفا تحت المظلة صامتين يتطلعان إلى الجهة التي تقبل منها الأتوبيسات . تعلقت بذراعه ثم خرجت كلماتها ببطء :

– ربما لم تكن الظروف مناسبة ؟

– أية ظروف ؟

تساءل مستنكرا بصوت أجش استغربه . قال لنفسه " ستعتقد الآن من نبرة صوتي أنني لست سعيدا لأن الأمر لم يكن في الحسبان " .

– أقصد ظروفنا .. المالية . ربما كان ينبغي تأجيل الحمل لوقت آخر ؟

لزم الصمت . وضعت يدها على بطنها ، فأكد عليها :

– نستقل تاكسي ؟

– لا . لا داعي .

وصل الأتوبيس فارغا تقريبا . قال لها وهما يرتقيان سلمه:

– لا تعلقي هذه المسألة بأحوالنا . هذا وقتها .

أرسلت بصرها إلى الشارع عبر الزجاج المرتج لنافذة الأتوبيس :

– لم أكن أتوقع الحمل . حدث ذلك في الليلة التي بتنا فيها عند أمي . لم تكن الحبوب معي .. وظننت ..

لزم الصمت .

منذ أن تحطمت كتفه وهو بلا عمل يدور حول نفسه كالتائه. حدث ذلك بينما كان في طريقه من المحل إلى 14 شارع يوسف عباس ينقل شطائر " البيتزا " الساخنة في صندوق مغلق . كان عمله كله يعتمد على انطلاقه بالموتوسيكل كالسهم ، ورجوعه كالريح عبر شوارع المدينة. وكان في أعماقه يعشق مخاطر العمل ، السرعة القصوى ، والهواء حين يضرب وجهه ، الزوغان الحاد بمقدمة الموتوسيكل متفاديا شخصا يظهر على الطريق فجأة ، وخطفات الضوضاء المتلاحقة تهب على جانبي الخوذة على رأسه . لهذا سمي " طيارا " . وبفضل طيرانه حافظ على راتبه ونظرات التقدير والإعجاب في أعين عمال المحل .

في تلك المرة ، انزلق بالموتوسيكل يسرق الطريق من بين السيارات . اجتاز إشارتي المرور قبل ملاهي " وندر لاند"، واندفع إلى شارع زاكر حسين . دار مع الصينية لينعطف إلى الشارع الرئيسي ، وفجأة برزت أمامه من يمين التقاطع سيارة " هوندای " صغيرة . ارتجفت يداه فوق المقبض ، وانحرف يتجنبها ، فارتفعت

العجلة الأمامية للموتوسيكل عالياً تلف أمام عينيه في الهواء ، وسقط على ظهره .

تحطمت كتفه ولم يعد صالحا للعمل طيارا . خلال الشهور الأولى باع التلفزيون ، ثم تصرفت نوال في السلسلة والقرط الذهبي وأثناء بحثه عن عمل بدأ رحلة القروض الصغيرة ، وانتهى بمبيت عند الأقارب اتخذ في البداية شكل زيارة بالمصادفة ، وحين تكررت المصادفة أدرك الجميع ما وراءها ، فتضاءلت الحفاوة وبان الفتور .

هبطا من الأتوبيس . انتبه إلى أنها لم تعد تذكر السمك . سارا نحو البيت . قال لها :

– المحلات الآن مغلقة . غدا نشتري السمك .

– غدا . الوقت متأخر الآن .

تعلقت بذراعه وضغطت عليها . دلفا إلى مدخل البيت . المدخل معتم بحاجة إلى مصباح منذ زمن ولا أحد يشتريه . أخرج سلسلة مفاتيح من جيبه ودفع بالمفتاح الكبير إلى ثقب الباب. أيا كان فإن لهما مسكنا . عبرتَ إلى الصالة ووضعت يدها على بطنها . أمسك أنفاسه وتعلقت روحه بحركة يدها . البطن التي لم تكن أكثر من لحم دافئ أصبحت حديقة ستزهر عما قريب . كانت الصالة باردة وفارغة من الأثاث تقريبا .

سألها تحت ضوء باهت :

– أعمل لك شاي ؟

– لا ..

– أنا سأعمله ؟

– لا ..

اندفعت إلى دورة المياه . تناهي إليه وهو في الصالة صوتها يخرج من حلقها بكل ما في معدتها . عادت بعد لحظات منهكة شاحبة الوجه . قالت :

– افرش لي ملاءة على السرير . ركبتاي ترتعدان لا أعرف لماذا.

هرول إلى غرفة النوم ، وحين انتهى من فرش الملاءة وجدها تقف إلى جواره. ألقت بجسدها على السرير .

– أتريدين حبة أسبرين ؟ أو كوبا من اللبن ؟

ابتسمت بوهن :

– لا ..

غادر الغرفة إلى شرفة الصالة . وقف وحده هناك في عتمة الشرفة. كان مشحونا بالصورة التي أعطاها له الطبيب . أخرجها من جيبه . أمعن النظر فيها : خربشة خطوط مرهفة تنبض . قال قلب صغير .. لكنه قلب .. مجرد قلب بلا فم ، ولا وجه ، لا شيء مع ذلك ينبض بحرارة ويضرب محيط الظلام .

ارتجف من الانفعال وهو واقف في الشرفة يطل على الخلاء والعتمة ، وبدا له في الصمت أن الكون واسع ومجهول يرتجف.

عاد إلى غرفة النوم .

كانت مستلقية ، بشحوب ، على السرير . وضع كفها بين كفيه :

– سنشتري غدا كل السمك .

– نعم . غدا . الوقت الآن تأخر .

▫ ▫ ▫

المؤلف

* **أحمد الخميسي** مواليد القاهرة 1948 .

– صدرت له أول مجموعة قصصية مشتركة عام 1967 عن دار الكاتب العربي بعنوان : " **الأحلام ، الطيور الكرنفال** ".

من كتبه :

– " **كان بكاؤك في الحلم مريرا** " مجموعة قصصية مترجمة عن الروسية دار المستقبل العربي بالقاهرة عام 1985

– " **قصص وقصائد للأطفال** " مترجمة عن الروسية– اتحاد الكتاب العرب دمشق عام 1998 .

– " **نجيب محفوظ في مرآيا الاستشراق** " تأليف وترجمة دار الثقافة 1989 القاهرة .

– " **أسرار المباحثات العراقية السوفيتية في أزمة الخليج** ". ترجمة 1991 مكتبة مدبولي القاهرة .

– " **موسكو تعرف الدموع** " مجموعة دراسات ومقالات – كتاب الأهالي القاهرة 1991.

– " **حرب الشيشان** " رحلة إلى الجبال – دار المحروسة القاهرة 1996

– " **نساء الكرملين** " القاهرة مكتبة مدبولي 1997

- " **رائحة الخبز** " مجموعة قصص مترجمة عن هيئة قصور الثقافة ديسمبر 1999 .
- " **الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين** " **مقالات – مؤسسة الهلالي للحريات – القاهرة 2008**

المحتـــــــويات

وقتٌ آخر.....4
قطعة ليل.....19
غيمة.....24
تصادف أننى..تصادف أننى..31
إغفاءة.....36
نتف الثلج.....40
قرب الفجر 47
السند.....55
اثنان.....62
نقطة عابرة.....72
موج أبيض.....80
نبضة.....88
المؤلف.....96